

الفصل الثاني

فجاءت أمة، وهي أمة

بها دين المطرفي
(تراث وآثار)

(٤)

مَجْزِيَةُ الْجَمَلَةِ، وَجَبْرِيَّةُ الْإِنْسَانِ

- رهين المحبين .
- صائمُ الدهر .
- السرُّ المذاع .
- الأديب الحر .
- خصومة واتهام .

رَهَيْنُ الْمُحْسِنِينَ

هذا زمانٌ ليس في أهله
إلا لأن تهجره أهلُ
حان رحيلُ النفسِ عن عالمِ
ما هو إلا الغدرُ والجهلُ
أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

من اللحظة الأولى لإيابه إلى معرة النعمان ، بدأ ينفذ ما فرضه على نفسه من قرارٍ : بنبذة العزلة ، وانقضاب عن العالم ، وثباتٍ في بلده إن حال أهله عنه من خوف الروم :
وتفسير القرار ، أو الوعد كما سمَّاه : أن يلزم بيته في معرة النعمان لا يبرحه لأبي سبب أو داع ، ويمتنع عن الزواج ، ويسد الذرائع ، فيقنع من الطعام بما يمسك رمقه مما تنبت الأرض ، ومن اللباس بما

يستره من خشن الثياب ، ومن الفراش بحصيرٍ من بردي أو لباد ،
وأن يروض نفسه على الزهد في الدنيا والسلو عنها ، كيما يهون
عليه احتمال محنة الوجود ووظأة الحرمان .
ذلك ما استقر عليه عزمه وأجمع عليه أمره ، منذ انسحب نفسيا من
معركته الأولى . وأخذ طريق الإياب من بغداد .
وبه سارت رسالته ، بلاغا ، إلى أهل بلده .
فكيف كان مسلكه ، وماذا أطاق من ذلك كله ، وماذا أعياه أن
يطبق ؟

•••••

أما العزلة ، فالتزمها من جانبه إلى أقصى المدى :
لبث تسعا وأربعين سنة في محبسه بمعرة النعمان ، لم يغادره إلا
مرة واحدة لم تتكرر ، حين حمّله قومه على الخروج ليشفع لهم لدى
« أسد الدولة : صالح بن مرداس . صاحب حلب » وكان قد خرج إلى
المعرة ليخمد حركة عصيانٍ من أهلها ، سببها فيما نقل المؤرخون ^(١) :
« أن امرأة دخلت جامع المعرة صارخة : تستعدي المصلين على صاحب
الماخور الذي أراد اغتصابها . فنفر كل من في الجامع وهدموا الماخور
ونهبوا ما فيه . وكان أسد الدولة في نواحي صيدا فأسرع إلى هناك
وعسكر بظاهر المعرة وشرع في قتالها ورمأها بالمنجنيق ، واعتقل من
أعيانها سبعين رجلا ، إقامة لهيبة السلطان .

(١) ابن العديم في « الإنصاف والتحري » والقفطي في « إنباه الرواة » والذهبي في « تاريخ الإسلام »
والصفدي في « نكت الهيمن » .

« فلما رأى أهل المعرة ألا قبيلَ لهم بذلك ، سعوا إلى أبي العلاء يسألونه الخروج إلى أسد الدولة في معسكره بظاهر المعرة ، والشفاعة لهم عنده . وما زالوا به حتى خرج متوكئاً على يد قائد له . وقيل لصالح : إن باب البلدة قد فُتِحَ وخرج منها رجل يقادُ كأنه أعمى . فقال : هو أبو العلاء ، أوقفوا القتال .

« وأذن له وأكرمه ، وعرفه شوقه إلى لقائه . ثم سأله : ألك حاجة ؟ فلما ذكر له أنه جاء شفيحاً لقومه ، أجاب صالح : قد وهبتها لك يا أبا العلاء - يعني معرة النعمان . ثم استنشده فأنشد :

تغيبتُ في منزلي برهنةً

ستيرَ العيوب فقيدَ الحسدِ

فلما مضى العمرُ إلا الأقلُّ

وحُمَّ لروحي فراقُ الجسدِ

بُعِثْتُ شفيحاً إلى صالحِ

وذاك من القوم رأيتُ فسُدُّ

فيسمع مني سجعَ الحمما

م وأسمعُ منه زئيرَ الأسدِ

قال صالح : بل نحن الذين نسمع منا سجعَ الحمام ، وأنت الذي

نسمع منه زئيرَ الأسدِ .

« ثم أمر بخيامه فوضعت ، ورحل عن المعرة » وعاد أبو العلاء إلى محبسه وهو يقول رداً على اعتراف القوم بفضله في ردِّ أسد الدولة عن البلد :

نجى المعرة من براثن صالح
رب يداوي كل داء مُعضل
ما كان لي فيها جناحُ بعوضة
اللهُ ألحقهم جناح تفضل
والبيتان من (اللزوميات) .

والخبر كما رواه المؤرخون ، يعطي سببا لخروج أبي العلاء ، تحت
ضغطٍ من إلحاح قومه « ما زالوا به حتى خرج » ،
كما يعطي شاهدا على منزلة أبي العلاء :
لدى قومه الذين اختاروه شفيعا لهم عند أسد الدولة صالح بن
مرداس ، عن يقين بأن من اختاروه خليق بأن تُقبل شفاعته .

ولدى « صالح بن مرداس » صاحب حلب ، الذي لم يكذب يسمع
من بعض جنده أن باب المعرة قد فُتح وخرج منه رجلٌ يقاد كأنه
أعمى ، حتى عرف من فوره أنه أبو العلاء ، فأمر بوقف القتال وأكرم
وفادته . وكان هو الذي سأل أبا العلاء : « ألك حاجة ؟ » فأعفاه بذلك
من أن يبدأ بعرض حاجته ، سؤالا والتماسا .

قد نلمح من الحوار بين الرجلين ، رأي كل منهما في الآخر ،
ولكن الخبر لا يحدد وراء ذلك ، موقف أبي العلاء من الحادث الذي
استنفر قومه غضبا لحرمة امرأة منهم ، فأغضبوا أسد الدولة بتمردهم
وعصيانهم ، فوطئ المعرة وطأة فادحة ، حتى نجاها الله من براثن
صالح

أبو العلاء ، على العهد به ، هو الذي يعطينا كلمته بيانا لموقفه ،

مسجلاً في قصيدة من لزومياته :

أنت جامعٌ يوم العروبة جامعاً
تقص على الشُّهَادِ بالمصير أمرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها
لَخَلَّتْ سماءَ الله تمطِرُ جَمْرَهَا
فهدُّوا بناءً كان يَأْوِي فناءه
فواجرُ أَلْقَتْ للفواحشِ خُمْرَهَا
أَلْفِنَا بلاد الشامِ إلفَ ولادةٍ
نلاقي بها سود الخطوبِ وخُمْرَهَا

.....

فإني أرى الآفاق دانت لظالم

يغر بغاياها ويشرب خمرها

ومتى كان الحادث ؟

في عهد « صالح بن مرداس » بحلب ، أي فيما بين سنتي ٤١٧ ،
٤١٨ هـ . وقد مضى علي أبي العلاء نحو ثماني عشرة سنة في محبسه ،
وبلغ من العمر نحو خمس وخمسين سنة ، حسبها وقد طالت عليه ،
أشرفت به على النهاية فلم يبق من عمره إلا الأقل ، « وحُمَّ لروحي
فراقُ الجسد »

لكن ظنه أخلفه ، فما يزال عليه أن يكابد الحياة أكثر من ثلاثين
سنة ؛ بعد خروجه شفيحاً لقومه .

ويضيف أبو العلاء في تأريخ الحادث الجلل الذي أخرجه ، ما فات المؤرخين أن يلتفتوا أو يلفتوا إليه : لقد حدث ذلك « يوم العروبة » وهو يوم الجمعة ! فيه دخلت السيدة المسلمة المسجد الجامع وقد احتشد المسلمون لصلاة الجمعة ، فقصت عليهم أمرها مع صاحب الماخور الذي أراد أن يحملها على الفاحشة . فنفروا جميعا غضابا وهدؤا الماخور ، ولو لم يفعلوا لأمطرتهم سماء الله جمرها ، فيما خال « أبو العلاء » الذي ما هان عليه قط ، أن يقوم إلى جواره ببلده ، في صميم ديار الإسلام ، ماخور يحتال على التفرير بنساء المسلمين فيأوي منهن إلى فنائه « فواجر ألقمت للفواحش حُمَرها »

وينفذ الهواء إليه في محبسه ، ملوثا بأنفاس البغايا ممن غرَّه الفاجر الظالم ، فيحس بالاختناق ، ويود لو أنه استطاع أن ينجو من المناخ المسموم ، لكنه كان مقيدا بعهده الذي قطعه على نفسه ؛ أن يلزم بلده ما عاش .

وعاد إلى محبسه . بعد خرجته اليتيمة التي لم تتجاوز ظاهر المعرة . ثم لم يبرحه قط حتى خرج من الدنيا بعد بضع وثلاثين سنة ، محمولا على الآلة الحدباء إلى جوار « قوم أجادوا العظائم ، وما فيهم أحدٌ نابسٌ »

أطاق أبو العلاء الحبس في منزله بالمعرة نحو نصف قرن من الزمان ، لكن الذي لم يستطعه ، هو أن يحول دون اقتحام الناس عليه عزله ، ولقائهم إياه في محبسه ...

قبل وصوله إلى المعرة ودخوله محبسه ، أرسل إلى أهل بلده بلاغا بقراره البات ، رجاء أن يُخلّوه وما اختار ، فيعضوه من حرج السعي إلى منزله الموصد عليه ، ولا سبيل لهم إلى لقائه .
أو بنص كلماته ، في رسالته « إلى السكن المقيم بالمعرة » ، منصرفه من بغداد :

« ... وبإدرتُ إعلامهم ذلك ، مخافة أن يتفضل متفضلاً بالنهوض إلى المنزل الجارية عادي بسكناه ليلقاني فيه ، فيتعذر ذلك عليه . فأكون قد جمعتُ بين سَمَجين : سوء الأدب وسوء القطيعة . ورُبَّ ملومٍ لا ذنب له . والمثلُ السائر : خلَّ امرأ وما اختار » (١) .
غير أنهم مع ذلك أبوا أن يستجيبوا له .

غلبهم الحرصُ على لقائه ، وكرهوا أن يخلوا بينه وبين ما اختار من عزلة صارمة وانفرادٍ موحش .

وحاول مخلصاً أن يصرفهم بكل ما أطاق من جهد . وأفلح في ذلك إلى حين ، فما سمح بالدخول إليه إلا لخاصة أهله الأدنين ، ممن ذكرهم في رسالته إلى خاله أبي القاسم .

« أجمعتُ على انفرادٍ يجعلني كالظبي في الكناس ويقطع ما بيني وبين الناس ، إلا مَنْ وصلني اللهُ به وصلَ النراع باليدِ والليلة بالغد » .

لم يتجاوزهم إلى بني الأعمام والأخوال !

(١) أنظرها في « رسائل أبي العلاء » تحقيق مرجليوث وفي « الإنصاف والتحرير » لابن العديم : ٥٤٦/تمريف .

وَلَدَى الْأَهْلِ الْأَقْرَبِينَ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ أَبُو الْعَلَاءِ فِي الدُّخُولِ ، التمس
أهل البلد مَنْ يفتح لهم بابَه الموصد .

كتب « ابن العديم » مؤرخُه المنصف المتحري :

« أقام مدة ويلة في منزله مختفيا لا يدخل عليه أحد . ثم إن
الناس تسببوا إليه - يعني : التمسوا الأسباب - وألحوا في طلب الشفاعة
لديه من أقاربه الأذنين » .

وروى فيما روى ، قصيدة لأبي صالح محمد بن المهذب ، استشفع
فيها بأبي الهيثم عبد الواحد ، لدى أخيه أبي العلاء . وفيها يقول
« محمد ابن المهذب » شاكيا متوسلا :

أراها آبتُ إلا التوى بيَ مفرما

ولو رضيتُ هجرانها لكفاني

تضن بإهداء السلام تجاهلا

ولو علمتُ أن الرقاد جفاني

هبي هجمةً كيما أرى الطيفَ مرةً

بها تحت أرواقِ الدجى ويرانى

لعلِّي أشفي عِلتي بِلِقائِهِ

فكم من خليل زارني فشفاني

وود كريم لو ينال خلافتما

هي النجم زادتُه علوُ مكانِ

تخير قلبي والحشا ، ثم إنه

ثوى بمحلٍّ عن سواه مُصان

أبا الهيثم اسمع ما أقول فإنما
تُعين على ما رُمّت خيرَ معان
قريضي هجاءً إن حُرمتُ مديحه
لأروعَ وضاح الجبين هجانِ
أطلَّ على بغداد كالغيث جاءها
به سعدُ نجمٍ في أجملِّ أوانِ
نضاها ثيابَ المجد وهي لباسها
وبدلها من شدةِ بليمانِ
فيا طيبَ بغدادٍ وقد أُرجتُ به
على بُعدها الأطرافُ من أرجانِ

.....

نأى ما نأى والموتُ دون فراقه
فما عُذره في النأي إذ هو دان
فكنُّ حاملاً مني إليه رسالة
تبين إليه في هضاب أبان
فإن قال أخشى من فلانٍ تشبها
فقُلْ : ما فلانٌ عندنا كفلانِ
هو الخِلُّ ما فيه اختلالٌ مودةٍ
فلا تخش منه زلَّةً ، بِضمانِ
فإن خنتُ عهداً أو أسأتُ خليقةً
ولم يك شأني في المودة شاني

فلا أحسنتُ في الحرب إمساكَ قبضي
بمبني ، ولا يُسراي حفظَ عنائي
لعل حياتي أن تعود نضيرةً
لديه كما كانت ، وطيبَ زماني

القصييدة وثيقة بالغة الأهمية والخطر ، من حيث دلالتها على ما كان يعنيه أبو العلاء بقوله : « أجمعت أمري على انفراد يجعلني كالظبي في الكناس ويقطع ما بيني وبين الناس ، إلا من وصلني الله به وصل الذراع باليد »

ومن حيث شهادتها لمبلغ صدقه فيما قال :

فأبو صالح محمد بن المهذب : من أعيان العصر فضلاً وعلمًا وتقى . وهو ابن عمّة أبي العلاء ، ورفيق صباه وزميله في الدرس وصديقه الصفيّ في الشباب . وهذا هو يستشفع بابن خاله أبي الهيثم ، ليُفتح له البابُ الموصد حتى على ذوي الرحم والقربى ، من أمثال أبي صالح الذي يمت إلى الضربير المعتزل بأقوى الأواصر وأقرب الأسباب !
هل كان أبو العلاء في كرم سجاياه ومروءة حفاظه بحيث يصم

مسمعه عن مثل ذلك التوسل الضار من ابن عمته ورفيق صباه ؟
أو كان ، وقد رق له قلبه فأذن له ، بحيث يملك أن يقول لسواه من ملتمسي لقائه بالشفاعة والتوسل : « ما فلانٌ عندنا كفلان » ؟
لقد فاته وهو يصدر قراره ، أنه يتجاوز نفسه إلى أهل بلده ، ويشق عليهم بما لا يطيقون من قطيعته ، وهم الذين حزنوا لسفره إلى

بغداد وألحوا في رجائه أن يعود .

وليكن أنهم صبروا على ما لا حيلة لهم فيه من فراقه ، ومنزله
ببغداد ناءً بعيد . أتى لهم الصبر وهو دانٍ قريب ، ليس بينهم وبينه
إلا بابٌ وجدار !

وتذكر المثل السائر الذي ضربه لهم :

« خلَّ امرأً وما اختار » .

وقد اختار لنفسه العزلة فليبق في محبسه حيث اختار .

واختاروا لأنفسهم أن يحظوا بلقائه ، ومن الإنصاف أن يخليهم وما

اختاروا !

وفتح البابُ الموصد ،

لا ليخرج منه أبو العلاء إلى الناس ،

بل ليدخل عليه الزائرون من ذوي قرياه وأهل بلده ، ثم من سائر

بلدان العالم الإسلامي .

فصار منزله الذي أَراده سجنًا له ، داراً للعلم يحج إليها الطلاب

من أقطار المشرق والمغرب ، يقرأون عليه أعماله ورسائله وديوان شعره ،

ويتعلمون منه ويأخذون عنه .

وفرغ للتدريس والإملاء ، فإذا خلا بنفسه في غير أوقات الدرس ،

فللعبادة والتأمل .

قال القفطي وابن خلكان : (١)

(١) في : « إنباء الرواة » و« وفيات الأعيان » .

« وأخذ عنه الناس ، وسار إليه الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماء
والوزراء وأهل الأقدار » .

وقال ابن فضل الله العمري : (١)

« وأخذ عنه خلق كثير لا يعلمهم إلا الله عز وجل . كلهم قضاة
وأئمة وخطباء وأهل تبخر ، واستفادوا منه ، ولم يذكره أحد منهم
بطعن ، ولم ينسب حديثه إلى ضعف أو وهن » .

وفي هذه المرحلة الخصبة الطويلة من عمره ، احتاج إلى عدد من
الكتبة الحذائق الأمانة ، يفرغون لكتابة ما يمليه . واختص به نفر من
المُجُودين يدونون رسائله ومصنفاته ، ويكتبون عنه إجازات السماع
والرواية ، لمن يسمع منه ويستجيزه . وفي كتاب (الإنصاف والتحري)
لابن العديم ، فصل في ذكر هؤلاء الكتاب المختصين بأبي العلاء ، منهم :

• ولدا أخيه أبي المجدد محمد :

« أبو محمد عبد الله بن محمد » وكان برّاً بعمّه ملازماً لخدمته
والكتابة له . ويقع بخطه من المصنف الواحد نسختان أو أكثر . وقد
ولي قضاء المعرة على كُره من عمه . وكان مولده بالمعرة سنة ٣٩٧ هـ ،
ووفاته بها سنة ٤٦٥ هـ .

« أبو الحسن علي بن محمد » : تولى قضاء المعرة وقضاء حماة
سنة ٤٥١ هـ بعد اعتزال أخيه القاضي أبي محمد عبد الله .
وقد نسخ بخطه جميع أمالي عمّه أبي العلاء .

(١) في : مسالك الأبصار .

• وابن أخيه أبي الهيثم : « الشيخ أبو نصر زيد بن عبد الواحد »
المتوفى سنة ٤٤٢ هـ .

• وولده « منافر بن زيد » وقف بخطه كتباً من تصانيف عم أبيه ،
« تدل على فضله وحسن نقله » .

• « جعفر بن أحمد بن صالح بن سليمان بن داود بن المطهر التنوخي »
وكان من أعيان كتاب أبي العلاء .

وقرأ عليه كثيراً من كتب الأدب ، وروى عنه « وكان خطه على
غاية من الصحة والضبط » .

• « ابراهيم بن علي بن الخطيب » اشتهر بالضبط والإتقان وإجادة
الخط . كتب معظم تصانيف أبي العلاء ورسائله . كما كتب عنه في
السمع عليه والإجازة عنه .

• « أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم المعري » وكان « من
العدول الأمناء الفضلاء » . تولى أوقاف الجامع بمعرة النعمان . ولزم أبا
العلاء وكتب مصنفاته بأمرها . وربما كتب من المصنف الواحد عدة
نسخ ، غاية في الضبط » .

• وولده « أبو الفتح محمد بن علي » ، وكان كوالده « ملازماً لخدمة
أبي العلاء والكتابة له » :

وقد اعترف « أبو العلاء » بجميل كتابه ، فذكر في بعض شعره
ابن أخيه أبا محمد القاضي ، شاكراً له صادق بره وكريم فضله ،
وإياه عنى بقوله :

وقاضي لا ينام الليل عني وطول نهاره بين الخصوم

وقال فيه ، وذكر أمه :

أعبدَ الله ما أسدى جميلاً
نظيرَ جميلٍ فعلك غير أمي
سقتني دَرَّها ودعت وياتت
تعوذني ، وتقرأ أو تسمي
همتَ بسان تجنبي الرزايا
فرُمتَ وقايتي من كل همي
كان الله يلهمك اختياري
فتفعله ، ولم يخطر بوهمي
حمدتك في الحياة أتم حمد
وأيامي ذممتُ أتم ذم
أجدك ما تركت وأنت قاضٍ
تعهدتُ مُقعدٍ أعمى أصم

كما ذكر بالحمد والثناء والدعاء ، كاتبه « أبا الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم » فقال :

« لزمْتُ مسكني منذ سنة أربعمائة . واجتهدتُ أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيده إلا أن أضطر إلى غير ذلك . فأملتُ أشياء وتولى نسخها الشيخُ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم ، أحسن الله معونته . فالزمني بذلك حقوقاً جمّة وأيادي بيضاء ، لأنه أفنى فيَّ زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه . والله يحسن له الجزاء ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء . »

أما ولده « أبو الفتح بن علي » فقد صنف أبو العلاء كتابا باسمه
عنوانه : (المختصر الفتحى) كما اختصه بكتابه (عون الجمل) -
آخر كتاب أملاه . وفيه شرحٌ لبعض ما في (كتاب الجمل : لأبي
إسحق الزجاجي) .

وسجل شهادته لبني أبي هاشم ، بالأمانة والورع والثقة والضبط ،
في (رسالة الضبعين) التي كتبها إلى « معز الدولة ثمال بن صالح » يشكو
إليه فيها تحريف رجلين لبعض شعره في (لزوم ما لا يلزم) ليتهما
بالإلحاد . قال :

« وفي حلبَ حماها الله ، نسخ من هذا الكتاب - اللزوميات -
بخطوط قومٍ ثقاتٍ يعرفون ببني هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بحبل
الورع متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه . وإن أحضرتُ
- النسخ - ظهرت الحجة بما قلت فيه » .

واشتهر من تلاميذه :

• أخوه الأديب الشاعر ، أبو الهيثم عبد الواحد ، وابنه زيد .

• القاضيان عبد الله وعلي ، ابنا أخيه أبي بكر محمد .

• « أبو القاسم علي بن المحسن بن علي التنوخي القاضي » .

وهو من أقران أبي العلاء . وقد لقيه ببغداد وكان صاحباً له وصديقا
طولَ مقامه بها . وإليه أرسل أبو العلاء القصيدة الثائية التي مرّت في
« حديث الإياب » :

يا عارضا راح تحدوه بوارقه
للكرخ سلّمت من غيثٍ ونُجيتنا
لنا ببغداد من نهوى تحيته
فإن تحملتها عنا فحييتنا
يا ابن المحسن ما أنسيتُ مكرمةً
فاذكرُ مودتنا إن كنت أنسيتنا

.....
بَتَّ الزمانُ حِبالي من حبالِكُم
أعزّزُ عليّ بكونِ الوصلِ مبتوتا
أعدُّ من صلواتي حفظَ عهدِكُم
إن الصلاة كتاب كان موقوتا

• « أبو زكريا الخطيب التبريزي » من أعيان القرن الخامس . وقد رحل إليه وأطال المكث عنده . ووصلت إلينا نسخة موثقة من (رسالة الغفران) مقابلة على النسخة التي كتبها التبريزي بخطه .

• « أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني » من فضلاء العصر . قصد إلى معرفة النعمان ولازمه مدة حياته يقرأ عليه إلى أن مات . وله صنف أبو العلاء كتاب « ضوء السقط » شرحا لديوان سقط الزند .

• « نصر بن صدقة القابسي النحوي » رحل إلى المعرة ولزم أبا العلاء وقرأ عليه وأخذ عنه ديوانه (سقط الزند) وكتب منه نسخة جيدة . (١)

(١) في (بنية الرواة) للسيوطي ، أن ابن صدقة لما عاد إلى مصر قدم الديوان إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي فأعجبه نظمه .

ومن تلاميذه أيضا :

- الإمام أبو المكارم عبد الوارث بن محمد الأبهري .
- والفقير أبو تمام غالب بن عيسى الأنصاري الأندلسي .
- والخليل عبد الجبار القزويني .
- وأبو طاهر محمد بن أحمد الأنباري .
- وأبو الحسن علي بن همام .

.....

ولم يقبل قط أن يأخذ على العلم أجرا . بل إنه كان يود لو أن
موارده المالية المحدودة احتملت ضيافة تلاميذه وقاصديه . وما سُمع في
المرحلة الثانية من عمره ، يشكو من ضيق ذات يده ، إلا لقصوره عن
الوفاء بما عدّه حق الضيافة وزكاة المروعة . فكان ، فيما نقل القفطي
والذهبي : « يتأوه من ذلك ويعتذر إلى قاصديه » .

وحاول مع ذلك أن يقتر على نفسه في القليل الضئيل من رزقه ،
ليوفر من إيراده المحدود ما يؤدي به زكاة مروءته .

ذكر « ابن العديم » أن أبا العلاء « كان لا يقنع بالدفع إلى من
يقومون على خدمته ، بل كان يدفع من إيراده الضئيل شيئا لأولي الحاجة
من يتردد إليه » .

ثم نقل بإسناد عن الخطيب التبريزي ، قال : « كان المعري يجري
رزقا على جماعة ممن كان يقرأ عليه ويتردد لأجل الأدب إليه » .

كما روى ابن العديم ، وجادة ، مما قرأه بخط أبي الفرج محمد

ابن أحمد بن الحسن ، الكاتب الوزير ، في وصف رحلته إلى الحج من أذربيجان ، ومروره بالمعرة للقاء أبي العلاء :

« وله معاشٌ يكفيه ويمونه . وأولادٌ أخٍ يخدمونه ويقرأون بين يديه ويدرسون عليه ويكتبون له . ووراًق برسمه مستأجر . ثم ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طفيفة . وما يفضل عنه يفرقه على اللاتنين به وفقراء القاصدين له من الغرباء » (١) .

وقد أبت عليه مروءته أن يقبل من تلميذه « الخطيب النبريزي » نفقة إقامته التي طالمت عنده . وفي الخبر أن الخطيب « كان - عند وصوله إلى أبي العلاء قد أعطاه صُرَّة فيها ذهب ليدفعها إلى من يختار ، كي ينفق منها على ما يحتاج إليه من طعام ، ويتوفر هو على القراءة والدرس . فأخذ أبو العلاء الصرة ، وهياً لتلميذه مطالب العيش طول مقامه بمعرة النعمان ، وهو يظن أن ذلك من ذهبه الذي دفعه إلى الشيخ . فلما حان وقت رحيله وودع شيخه ، دفع إليه صرته بعينها لم تُمس » (٢) .

وانصل به من غير التلاميذ وطلاب العلم والأدب ، عددٌ من أعلام العصر : إما بالرحلة إليه كالكاتب الوزير أبي الفرج محمد بن أحمد بن الحسن ، والرحالة الفارسي ناصر خسرو ، وعزيز الدولة أبي شجاع فاتك ، والي حلب للحاكم بأمر الله ، موقداً منه لحمله إلى مصر . وإما عن طريق المراسلة . واشتهرت رسائله إلى بعضهم ، مثل :

(١) الإنصاف والتحري : ٥٧٥ / تعريف .

(٢) ابن العديم : الإنصاف والتحري ٥٧٦ / تعريف .

(رسالة الغفران) أملاها ردًا على رسالة تلقاها من معاصره الأديب الحلبي « علي بن منصور ، المعروف بابن القارح »^(١) .

(رسائله إلى داعي الدعوة) أبي نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران . ردًا على رسائل تلقاها منه ، يجادله في امتناعه عن أكل اللحم وإيذاء الحيوان

وكتب إليه عدد من الأمراء والولاة ، يسألونه تشریفهم بتصنيف كتب برسِمهم . وأجاب دون أن يقبل من أحدهم أجرا .

أذكر من هذه التصانيف :

(الصاهل والشاحج)

و (لسان الصاهل والشاحج) على لسان فرسٍ وبغل . و (القائف) ، وفيه أمثال على معنى كليلة ودمنة .

ألف الثلاثة ، للأمير « عزيز الدولة شجاع بن فاتك » والي حلب من قبَل المصريين ، في أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر .

(الرسالة السندية)

و (رسالة العرض)

ألفهما لسند الدولة الكتامي ، والي حلب من قبل المصريين أيضا .

(اللامع العزيزي) في تفسير شعر المتنبي .

ألفه للأمير « عزيز الدولة ثابت بن ثمال بن صالح » .

(عبث الوليد)

(١) تجد نص رسالة ابن القارح ، مع (رسالة الغفران) في طبعة الدخائر . وانظرها مع بحث فقدي موع في : (جديد في رسالة الغفران) . نشر : دار الكتاب العربي بيروت ، ١٩٧٢ .

على نسخة من شعر أبي عبادة الوليد البحتري ، كان « أبو اليمن المسلم بن الحسن ، صاحب الديوان بحلب » قد بعث بها إلى أبي العلاء ، فأعادها إليه مع (عُبت الوليد) مراجعة ونقدا وتصحيحا .
(شرف السيف)

عمله لأمير الجيوش « أنوشتكين » والي دمشق وحلب .
(الرياشي المصطنعي) في شرح ديوان الحماسة .
بعث به إلى مصطنع الدولة أبي غالب كليب بن علي ، وكان قد أرسل إلى أبي العلاء (ديوان الحماسة) مع شرح أبي رياش . وسأله أن يخرج في حواشيها ما لم يفسره أبو رياش .
(رسالة الإغريض)

كتبها إلى ذي الرياستين « أبي القاسم الحسين بن علي المغربي » وكان قد سير إليه كتابه الذي اختصر فيه « إصلاح المنطق لابن السكيت » .

(مجمع الحمام)
ألفه لبعض الرؤساء إجابة لطلبه ، وهو على لسان حمامة ، في العظة والحث على الزهد . مقداره ثلاثون كراسة .
إلى جانب ما ألفه للأصدقاء وذوي الحاجة ، ممن سأله أن يزودهم ببعض مؤلفات في موضوعات يحتاجون إليها . منها :
(سيف الخطبة)

فيه نماذج لخطب الجمع والعيدين ، وأدعية الاستسقاء والكسوف والخسوف . على حروف المعجم . سأله فيه أحد المشتغلين بالدين .

(ضوء السقط)

شرح لديوانه سقط الزند ، وضعه لتلميذه أبي عبد الله محمد
الأصبهاني .

(المختصر الفتحى)

و (عون الجمل)

عملهما زوَلِدِ كاتبه أبي الفتح محمد بن الشيخ أبي الحسن علي .
(الظل الطاهري) في النحو .

عمله لأبي طاهر المسلم بن علي ، من أفاضل الحلبيين .

(الجلى والجلى)

سأله فيه رجل من أكابر الحلبيين وأعيانهم . مقداره عشرون
كراسة .

(تاج الحرّة)

في عِظَات النساء بخاصة . صنفه لإحدى الجليلات من النساء .
قال ابن العديم : « ويغلب على ظني أنها : طرود ، زوج ابن مرداس .
ومقداره أربعمائة كراسة » (١) .

(شرح خطبة أدب الكاتب)

عمله لأبي الرضى سالم بن الحسن الحلبي . وكان من الفضلاء
الأدباء الشعراء .

.....

ولم نذكر الحشد الكاثر من الزائرين ، ومن الأصدقاء الذين تبودلت

(١) الإنصاف والتحري : ٥٢٩ / تعريف .

بينهم وبينه الرسائل الإخوانية أو اللغوية والأدبية ، على مدى ما يقرب من نصف قرن ...

مع كل ذلك الاتصال بطلاب العلم وأعيان العصر ، لزم مسكنه لم يبرحه حتى آخر العمر . وقد حاول « الحاكم بأمر الله الفاطمي » أن يحمله إلى القاهرة - مع مَنْ جلب إليها من علماء الدولة الإسلامية في زمنه - لما بلغه من واسع علمه ورسومه درايته . وفي خبر نقله الجلال السيوطي في (بغية الوعاة) أن « نصر بن صدقة القابسي توجه إلى المعرة فلازم أبا العلاء وأخذ عنه ديوانه سقط الزند ، وكتب منه نسخة جيدة . فلما عاد إلى مصر قدمه إلى الحاكم [بأمر الله الفاطمي] فأعجبه نظمه وقرر أن يستدعيه من المعرة » .

وذكر « ابن العديم » أن « الحاكم » أمر وزيره علي بن جعفر بن فلاح أن يكتب إلى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك ، والي حلب أعمالها ، بحمل هذا العالم إلى مصر ليبنى له بها دارَ علم يكون متقدما فيها . على أن يُسمح له بخراج معرة النعمان طول حياته . فلما تلقى عزيز الدولة كتاب الوزير ، نهض من فورهِ وسار إلى معرة النعمان واجتمع بأبي العلاء وقرأ عليه الكتاب . فاستمهله ريثما أملى إلى الوزير الفلاحي رسالة مطولة ، يستعفيه بها من كل ما عَرَض ، وينفي ما اشتهر به من علم ، ويعتذر بعجزه وقصوره من عدم إجابة الطلب ، على ما به من شوق إلى الحضرة ، ومجالسة من في دار العلم بمصر من السادات الكبراء (١) .

(١) في « الإنصاف والتحري » : ٥٧٠ - وقابله على رسالته إلى الوزير الفلاحي ، في « رسائل أبي العلاء » : ص ٥٩ / مرجليوث .

وأنقل هنا من رسالته إلى الوزير :

« ما اعتزلتُ حتى جددت وهزلتُ فوجدتُني لا أصلح لجدُّ ولا هزل ،
فَعندها رضيت بالأزل .

« ما حمامة ذاتُ طوق يُضربُ بها المثل في الشوق ، كانت في وكر
مصونٍ بين الشجر والغصون ، تألف من أبناء جنسها ريدا فيتراسلان
تغريدا ، مسكنُها نعمان الأراكِ تأمن به غوائل الأشراك ، وتمر في بكرتها
بالبيت الحرام لا تفرق لمكانٍ صائدٍ ولا رامٍ ، فغرَّها القدرُ إذ لم ينفع
الحذر ، فخرجت من الأرض المحرَّمة فأصبحت وهي جدُّ مغرمة ، صادها
وليدٌ في الجِلِّ ، ما حفظ لها من إلٍّ ، فأودعها سجنا للطير ومنعها من
كل مير ،

بأشوقَ إلى المعيشة مني إلى تلك الحضرة . ولكنَّ صنعَ الزمان ما هوَ
صانع ، واعترض دون الخير مانع ... الموردُ نيمٌ أزرق ، ولكن المدنف
بالشرابِ يَشْرَق :

لما رأى لُبْدُ النسورَ تطايرت

رفع القوادم كالفقير الأعزلِ

انهضُ لُبْدُ ! هيهات ، صدك الأبدُ .

وإن العامة عهدتني في صدر العمر أستصحب شيئا من أساطير
الأولين فقالت : « عالم » والناطقُ بذلك هو الظالم . ورأتني مضطرا إلى
القناعة فقالت : « زاهد » وأنا في طلب الدنيا جامد . وزاد تقولُ القوم
عليَّ حتى خشيتُ أن أكون أحد الجهال الذين ورد فيهم الحديث المأثور :
« إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبض

العلم بموت العلماء . حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رموساً جهالاً ،
فَسألوا فآفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

« ... وكيف يتأدى العلم إليّ وأنا رجل ضير ، وكفى من شرِّ
سماعه ، ونشأتُ في بلدٍ لا عالم فيه ... ولم أكن صاحب ثروة فكيف
الحُداء بغير بَعيرٍ والإنباضُ مع فقد التوتير ؟ فإن بلغ سيدي الشيخَ
أن سارى الليل قبض على سهيلٍ ، وأن الأرض أنبتت وشياً وحريرا ،
والسحاب أمطر مداما وعبيرا ، فهو أعلمُ برده على المبطلين ...

« لهفي على فواتِ هذه المنزلة ! ...

من لا يصلح لمجالسة النظراء فكيف يُنتدب للقاء السادات الكُبراء ؟
لقد أسمعتُ لو ناديت حَيّاً

ولكن لا حياة لمن تنادي

« هل آمل من الله ثواباً ، وإنما أنا كقتلى بدرٍ أسمع ولا أملك
جواباً ؟ ولمثل هذه الرتبة سهر من أهل العلم الساهرون : « يا ليتني كنت
معهم فأفوز فوزاً عظيماً » .

« وعزیز الدولة يُعين الكسيرَ بالجبر ، فكيف يأمر بإخراج ميِّتٍ
من قبر ! ... »

لنا أن نقول إذن : إن عزلة أبي العلاء وإن لم تسلم له على النحو
الذي أراد ، فإنه التزمها من ناحيته فلبث رهين محبسه حتى مات .
وكان الناس هم الذين أصرروا على أن يقتحموا عليه عزلته ، فشغلوه
وشغلوا به ..

على كرهٍ منه ...

وكان أحياناً يضيق بزائريه ، وينكر أن يكون لديه مأربٌ لقاصدٍ
أو مُنتَجِعٌ لرائد ، أو كما قال في اللزوميات :

يزورني القومُ ، هذا أرضه يَمَنُّ

من البلاد وهذا داره الطبسُ

قالوا سمعنا حديثاً عنك قلت لهم

لا يبعد الله إلا معشراً لبسوا

يبغون مني مبنياً لست أحسنه

فإن صدقتُ عرَّتْهم أوجهُ عبسُ

ماذا تريدون ؟ لا مالٌ تيسر لي

فِيستماح ولا علمٌ فيقتبس

أنا الشقي بآئي لا أطيق لكم

معوذةً ، وصروفُ الدهرِ تحنيسُ

وطالما انتهى الوحدة التامة ورأى فيها الراحة العظمى المرجوة لثنيه

في دنياه ، والطهارة من دنس العصر ولؤم أهله :

هذا زمان ليس في أهله

إلا لأن تهجره أهله

حان رحيلُ النفس عن عالم

ما هو إلا الغلر والجهلُ

في الوحدةِ الراحةُ العظمى فأخِي بها
قلبا ، وفي الكونِ بين الناسِ إثقالُ

••••

ظهارَةٌ نفسي في التباعدِ عنكم
وقربُكمُ يجني همومي وإدناسي

••••

من لي بأني وحيدٌ لا يصاحبي
حيٌّ سوى الله ، لا جنٌّ ولا إنسُ

••••

بنو الوقتِ إن غرّوك منهم بحكمةٍ
فما خلفها إلا غرائزُ جهالٍ
لذلك سجنّتُ النفسَ حتى أرحتها
من الإنس ما أخلاه ربعٌ بسإخلالٍ
إذا ما حلتُ الجذبَ فردا بلا أذى

فسقيا له من روضةٍ غير محلال

••••

وما باختياره كان يلقي زواره .

ولا باختياره كذلك كان انسحابه من دنيا • لم يخرج إليها برأس
مالٍ • وقرارٌ بالعزلة والانفراد ، حملة عليه عجزه عن احتمال نُكْر
العصر وفساد المجتمع . وإنه ليقول مع ذلك في اجتماعية الإنسان كلماتٍ
جرت مجرى الأمثال : كقوله :

الناسُ للناسِ من بدوٍ وحاضرةٍ
بعضٌ لبعضٍ . وإن لم يشعروا خَدَمُ

ولو أني حُبَيْتُ الخُلْدَ فرداً
لما أَحْبَبْتُ بِالْخُلْدِ انفراداً
فلا هطلتْ عليَّ ولا بأرضي
سحائبٌ ليس تنتظم البلاداً

صَائِمُ الدَّهْرِ

أنا صائم طول الحياة وإنما
فطري الحمام ، ويومذاك أُعيدُ

ووجدتُ نفسَ الحرِّ تجعلُ كفه
صيفرا ، وتلزمه بما لا يلزمُ
أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

* * *

ذلك ما قد كان من أمره مع العزلة ،
فماذا عن تزهدة وحرمانه من متع الحياة الدنيا ؟
كان أمرها - فيما يبدو - محتملا ، حيث استطاع أن يبقى على
الحرمان ما عاش : لبث إلى آخر عمره لم يتزوج ، وأمضى نحو نصف

قرن « طعامه البقل ، ولباسه خشن القطن ، وفراشه سجادته : من لباد في الشتاء ، وحصير البردي في الصيف » ...
أجمع على ذلك مؤرخوه بغير استثناء .

وشهدت به آثاره التي أملاها في طور عزلته .
وكان له إيرادٌ يسير يأتيه من وقفٍ له ، مقدارُه بضعة وعشرون ديناراً في السنة ، « يدفع نصفه أجراً لخدامٍ ووراق . ويقم أودّه بالنصف الباقي » .

وعلى هذا النحو ، حدّد إيراده ومصروفه ، في إحدى رسائله إلى داعي الدعاة .

فإذا ضاق هذا القدر الضئيل عن الوفاء بأدنى ضرورات العيش ، تخلى عما يطيق الاستغناء عنه منها ، وأبى أن يلمس زيادةً في رزقه من أي سبيل .

أو كما قال في شيخوخته العالية . من رسالته الأولى إلى داعي الدعاة :

« ولست أريد في رزقي زيادة ، ولا أوتر لسُلمي عيادة » .
وكما رفض في بغداد قبول ما عرضه عليه البغداديون من أموالهم عرضَ الجِد ، أبى بعد عزلته أن يقبل عطاءً من أي مخلوق ، ولو كان أجراً على مُصنّف يُطلّب منه . وقد مرّ من حديث « رهين المحبسين » خبره مع « الحاكم بأمر الله الفاطمي » حين أراد أن يحمله إلى مصر لما سمع من علمه « على أن يُسمَح له بخراج معرفة النعمان طول حياته » فأبى واعتذر .

ويذكرون كذلك في تاريخه ، « أن المستنصر بالله الفاطمي صاحب مصر - ٤٢٧ هـ - بذل له ما يبئ المال في معرة النعمان ، فلم يقبل منه شيئاً » (١) .

•••••

وأبى أن يرجع عما ألزم به نفسه من امتناع عن أكل اللحم واللبن والبيض وإيذاء الحيوان ، وأصر على القناعة بما تنبت الأرض من بقل ، على الرغم من إنكار مجتمع عصره لهذا المسلك ، واتخاذ ذريعة للطن والتجريح والانتهاج .

وتشهد الرسائل التي تبودلت بينه وبين المؤيد داعي الدعاة « أبي نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران العلوي » على ما أجهد أبا العلاء في شيخوخته من عنف الخصومة على موقفه ، وعنّت الجدل فيه ، وعلى ما تكلف من مشقة وعناء ، كي يبرر مسلكه .

كان أبو العلاء قد قال من قصيدته اللزومية :

غدوتَ مريضَ العقل والدين فالقَي

لتسمع أنباء الأمور الصحائح

فلا تأكلنْ ما أخرج الماء ظالما

ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح

ولا تفجعنَّ الطيرَ وهي غوافل

بما وضعتُ ، فالظلم شرُّ القبائح

(١) الإنصاف والتحرّي : ٥٦٥ / تعريف .

ودع ضَرْبَ النحل الذي بَكَرَتْ له
كواسبَ من أزهارِ نِبتِ فوائِح
فما أحرزته كي يكون لغيرها
ولا جمعته للندى والمنايح
مسحتُ يدي من كل هذا فليتني
أبهت لثأني قبل شيب المسائح

ماذا ؟ هل نسي الشيخ أن الله تعالى أحل لعباده صيد البر والبحر ،
وأحلَّ زينة الحياة الدنيا والطيبات من الرزق ؟
كلا ، لم ينس ذلك قط ،

لكنه لم ينس كذلك الآية المحكمة ، خطابا للمصطفى عليه
الصلاة والسلام :

وابتغِ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسِ نصيبَكَ من الدنيا.

– القصص ٧٧

المجتمع الإسلامي هو الذي أنسيَ بأوضاعه الفاسدة ، ابتغاءَ الدار
الآخرة ،

بل أنسيَ كذلك ، فيما استحل من زينة الحياة الدنيا ومتاعها ،
أن يميز بين حلال منها وحرام ، بين طيبات وخبائث ، فما عاد يُذكرُ
إلا بأن الإسلام أحلَّ زينة الحياة الدنيا ، وأن الطيبات من الرزق لا
تعني نقيض الخبائث ، وإنما تعني ما لذ وطاب !

وسيطر على الناس من استعبدتهم الشهوات ، فغدا المسلم منهم

مريض العقل بما غفل عنه من داء الشهوة المتلف ولعنة الترف الوبيل ،
مريض الدين بما استباح من غير الطيبات من الرزق ، وما ضل عنه
من ابتغاء الدار الآخرة .

وإذ اضطربت الموازين وضلَّت السُّبُل ، وآلت زينة الحياة الدنيا
إلى تهالك بشع على المَتَع الحسية وتناحر على التكاثر في الأموال والأولاد ،
وضرَّبت أمراض الأثرة والحرص والطمع والنفاق والقسوة ، فماذا على
الشاعر الشيخ وقد نجا بعقله ودينه من عبودية الشهوة وذل الطمع
ولؤم النفاق ، إذا خطر له أن يوصي المرَّضى بمجاهدة شاقة ، سداً
للذرائع ؟ وأن يندم على ما فات من عمره الأول ، حين كان يُقبل على
الدنيا كما يقبل سائر الناس ، فلقي من أشر الشباب وجموح الرغبات
ما أمرَّضه وأضناه؟! أولاً يوصي الطبيبُ مرَّضاه بالحِمية ؟

لكن عصره المريض الموبوء ، لم يكن بحيث يحمل أبيات الشاعر
على هذا النحو اليسير القريب ، فما إن تناقلها الناسُ وبلغتُ مركز
السلطة الحاكمة في مصر ، حتى تلقفها داعي دعائهم ، ووجد لها فرصة
سانحة ليكف من غلواء هذا الشيخ الساكن في بلدة من إقليم الشام ،
الخاضع للأسرة الفاطمية بمصر ، وما فتىء يجهر بكلمات خطيرة على
النظم الحاكمة ، ويوشك بمسلكه العجيب أن يفتن الناس عما ألفوا من
أوضاع .

وإذ قال الشاعر الشيخ في قصيدته :

غدوت مريض العقل والدين فالقني

لتسمع أنباء الأمور الصحائح

فليكن داعي الدعاة ، ذلك المريض الذي يلتمس لدى طبيب العقل
والدين : البرء والشفاء !

وكتب إليه فيما التمس ...

وبدأ المتمارض . بالعقل ، فسأله عن العلة في تحريمه على نفسه
أكل اللحم واللبن . « سؤال من يعرف أن القوة الإنسانية مستولية على
الحيوان استيلاءً الحيوان على النبات ، لرجحانها عليه بالنطق . فهي
مسخرة له على أنواع من التسخير ، ولولا ذلك لكان موضوع الحيوان
باطلا . فتجافى الشيخ ، وفقه الله ، عن الانتفاع بما هو موضوع له
مخنوق لأجله ، لإبطال تركيب الخلقة » .

وانتقل إلى الدين ، فقال :

« ثم امتناعه من أكل الحيوان ليس يخلو القصد به من أحد أمرين :
إما أن تأخذه رافة بها فلا يرى تناولها بالمكروه ، وما ينبغي أن
يكون أراف بها من خالقها . فإذا ادعى أن تحليلها وتحريمها إنما كان
من بعض البشر ، يعني به أصحاب الشرائع ، وأن الله لم يُبِح إراقة
دم حيوانٍ وأكله ، كان الدليل على بطلان قوله : وقوع المشاهدة لجنس
السباع وجوارح الطير التي خلقها الله سبحانه على صيغة لا تصلح إلا
لينتس اللحم وفسخها وتمزيق الحيوانات وأكلها . وإذا كان هذا الشكل
قائم العين - المشاهدة - في الفطرة ، كان جنس البشر وسيع العذر في
أكل اللحوم ، وكان من أحلّ لهم ذلك محققا .

« والثاني - من أمرين لا يخلو القصد من أحدهما - أنه يرى سفك
دم الحيوان خارجا عن أوضاع الحكمة ، وذلك اعتراض منه على خالقه

الذي أوجده ... » .

هكذا ، خرجت القضية من مجاهدة صائم وتأملات شاعر ونصيحة حكيم مجرب إلى مجادلة كلامية في نظام الكون وترتيب الكائنات وحكمة الخالق !

وردَّ أبو العلاء ، محاولاً أن يخرج الموضوع من هذا المجال الكلامي الذي أقحم عليه . وأن الأمر لا يعدو أن يكون تزهدا ورحمة :

« ... وقد علم الله أن سعي ثقیل وبصري عن الإبصار ثقیل . قُضِيَّ عَلَيَّ وأنا ابنُ أربعٍ لا أفرِّقُ بين البازلِ والرَّبعِ . ثم توالَتْ مِخْيَ فاشبه شخصي العودَ المحني ...

« وأما ما ذكره السيد الرئيس الأجل المؤيد في الدين ، فالعبدُ الضعيف العاجزُ يذكر له مما عناه طرفاً ، فأقول : إن الله جلَّتْ عظمتُه حكم عليٌّ بالإزهاد فطفقت من العدم في جهاد . وأما قول العبدِ الضعيف العاجز :

• غدوت مريض العقل والدين فالقني •

فإنما خاطب به من هو في غمرة الجهل ، لا مَنْ هو للرياسة عَلِمٌ وأصل . وقد عَلِمَ أن الحيوان كَلَّهُ حساس يقع به الألم ... ولم يزل مَنْ يُنْسَبُ إلى الدين يرغب في هجران اللحوم لأنها لم يوصل إليها إلا بإيلام الحيوان ... وقد تردد في كلام العرب ما يلحق الوحشية من الوجد والناقة إذا فقدت الفصيل . فقال قائلهم :

فما وجدت كوجدي أم سقب

أضاعته فرجعت الحنينا

وعرض الشيخ لاختلاف العلماء في الشر والخير ، « وهذه عقدة

قد اجتهد المتكلمون في حلِّها فأعوزهم »

ثم قال :

« فلما بلغ العبدَ الضعيفَ العاجزَ اختلافُ الأقوال - في الشر والخير -
وبلغ ثلاثين عاما ، سألَ ربَّه إنعاما . ورزقه صومَ الدهر فلم يفطر في
السنة ولا الشهر إلا العيدين ، وصبر على توالي الجديدين . وظن اقتناعه
بالنبات يُثبت له جميلَ العافية .

« ومما حثني على ترك أكلِ اللحوم ، أن الذي لي في السنة نيف
وعشرون دينارا ، فإذا أخذ خادمي بعض ما يجب ، بقي لي ما لا يعجب ،
فاقتصرت على فولٍ وبلسن ، وما لا يعدُّب على الألسن ... ولست أريد
في رزقي زيادة ، ولا لسُقمني عيادة . والسلام . »

وطالت بينهما المكاتبة وطالت المجادلة .

حتى بدا لداعي الدعاة أن يُبطل حجته في الامتناع عن أكل اللحوم
لفقره ، فكتب إليه :

وقد كاتبُ مولاي تاج الأمراء - ثمال بن صالح . والى حلب
للفاطمية - أن يتقدم بإزالة العلة ، فيما هو بُلغةٌ مثله من ألد الطعام ،
ومراعاته به على الإدرار والدوام ، ليكشف عنه غاشية هذه الضرورة ،
ويجري في أمر معيشته على أحسن ما يكون من الصورة ... » .

ألد الطعام ؟

ذلك ما فهموه من « طيبات الرزق » الحلال ، غير الخبائث !
وداعي الدعاة لا يعرضه على الشيخ في صورة اقتراح ، بل يُعلمه

بأن الأمر قد تقرر ، وصدرت به مكاتبة إلى والي حلب ، ليُعَيَّن لأبي العلاء « ما هو بلغة مثله من ألد الطعام ، ويجري في أمر معيشته على أحسن ما يكون من الصورة » .

وإنه لَعلى يقين أن بُلغة مثله كسرةُ خبز تقيم الأود ، وأن قصارى حاجته من المعيشة ، ثوب من نخس القطن ، وسجادة من لباد أو حصير البردي .

هو إذن أمرٌ يراد أن يُحمل عليه أبو العلاء ، ممن يملك سلطة الأمر .
ورد أبو العلاء :

« ... وأما ما ذكره من المكاتبة في توسيع الرزق عليّ ... فالعبدُ الضعيف العاجزُ ما له رغبة في التوسع ومعاودة الأتعمة ، وتركها صار له عادةً وطبعاً . وإنه ما أكل شيئاً من حيوان ، خمسا وأربعين سنة :
والشيخ لا يترك عاداته

حتى يوارى في ثرى رمسه »

ونص عبارته ، يحدد لتاريخ الرسالة خمسا وأربعين سنة ، منذ بدأ مجاهدته عام ٤٠٠ هـ .

أي أنه كان في نحو الخامسة والثمانين من عمره ، حين أُجهد بهذه الخصومة الكلامية .

ولم يقبل داعي الدعاة اعتذاره بالعادة والطبع ، بل ألح في مجادلته ليُعتنه . وعاد أبو العلاء يحاول أن يرد القضية إلى وضعها الصحيح ، من حيث هي مجاهدة في الزهد والتعفف والرحمة ، مستشهداً بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الأئمة الصالحين ، من القناعة بالقليل ،

وإيثار أهل الحاجة بما يفضل منهم . ثم قال لداعي الدعاة يرد على
إيمائه المريب :

« وقد عدل سيدنا الرئيس إلى الإيماء بأن من ترك أكل اللحم ذميم .
ولو أخذ بهذا المذهب لوجب على الإنسان ألا يصلي صلاة إلا ما افترض
عليه ، لأن ما زاد على ذلك أداه إلى كلفة ، والله تبارك وتعالى لا يريد
ذلك ! ولوجب أن الذي له مال كثير . إذا أخرج عن المذهب ربع
العشر - زكاة - لا يحسن أن يزيد على ذلك ! وقد حثَّ الناس على
النفقات في غير موضع من الكتاب الأشرف » .

وإذا كان داعي الدعاة قد أفلح بتمارضه في جرّ أبي العلاء إلى
المنظرة ، وأعنته بجذله الماكر ، فقد أعياه أن يقنع الشيخ بالرجوع عن
رأيه ومسلكه ، أصرَّ عليهما بقية عمره . وأعلن هذا الإصرار جهرة
في رسالته الرابعة إلى داعي الدعاة . ابن موسى بن أبي عمران .
قال إنه : « قد رضي أن يلقي الله جلَّت قدرته ، وهو لا يُطالب
إلا بما فعل من اجتناب اللحوم . فإن وصل إلى هذه الرتبة فقد سعد .. » .
أجل ، يلقي الله بهذا ، ولا يلقاه بما أوغل فيه ناسٌ من شر وإثم
وظلم وبغي ، وما اقترفوا من كبائر الفواحش . وإن أصناف الحيوان
فيما قال : لأولى بالرأفة ، وهي لم تشرب من الإثم بذنوب ، ولم
تجن ما يكتب من الذنوب » .

ولقد جادله آخرون في هذا المسلك ، فأمسك عن المجادلة يأساً

من إقناعهم بأن مجاهدة النفس بالزهد والتعفف والرأفة ، ليست من الكبائر ! وأن الامتناع عن أكل لحم الحيوان ، لا ينبغي أن يُناقش ديننا ، ممن يستحلون أو يسكتون على أكل لحوم الناس وأعراضهم وأموالهم بالباطل ، وأن الامتناع عن شرب اللبن الحلال ، لا يجوز أن يحاسب عليه باسم الإسلام ، مجتمع غارق في دنان الخمر والفجور ، عاكف على مجالس اللهو والطرب والشراب ...

كلا ، لم يتزحزح عن موقفه ، ولم يرجع عن قراره ، حتى النفس الأخير .

في الخبر أنه مرض فجاءوه بطبيب راعه هُزاله فوصف له لحم فروج غداءً ، وأتوه به فلمسه وقال :

« استضعفوك فوصفوك ! هلا وصفوا شبل الأسد ؟ »

وأبى أن يذوقه ، وصدقت كلمته :

أنا صائم طولَ الحياة وإتما

فطري الحِمَامُ ، ويومذاك أُعَيِّدُ

السِّرُّ المَبْدَاع

وقال الفارسون : حليف زهدٍ
وأخطأت الظنون بما فرسَنه
ورُضتُ صعابَ آمالي فكانت
خيولا في مراتعها شَمْسَنه
ولم أعرض عن اللذات إلا
لأن خييارها عني خنسنه
أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

••••

لِمَدَى ، نصفِ قرنٍ إلا قليلا ، أخذ أبو العلاء نفسه بأقصى ضروب
الزهد وأشق التكاليف ، وراضها على احتمال ما فرَض عليها من حرمان
صارم ،

فهل كان ذلك عليه هينا ؟

كلا ! بل إنه كان يخوض مع بشريته معركة بالغة العنف والقسوة ، فإن يكن شق على نفسه بأقصى مما تطيق ، فقد لبث الى آخر العمر عاجزا عن أن يقهر في نفسه حبَّ الدنيا أو يرتاح بالسُّلو عنها واليأس منها !

قد يبدو هذا القول غريبا ، مع ما شاع فينا وذاع ، من أن الرجل « انتصر على الدنيا منذ قرر الانسحاب منها ، ووطئها بقدميه ، وقد انصرفت نفسه عنها » (١) .

وما ننكر أنه لم يكف عن ذم الدنيا ولعنِها ، لكنه كذلك لم يكتم الشكوى مما رسخ في نفسه من حُبِّها ، والأنين مما ظل يكابد من أشواق بشريته المكبوتة ، وحاجاته الغريزية المقهورة !

وحين انسحب منها إثر إيباه من بغداد ، لم يكن يبغى أكثر من الظفر براحة اليأس منها ، بعد أن عزت عليه راحة الأمل فيها .

ولم « يطأها بقدميه » كما زعموا :

وإنما اتجهت محاولته إلى قهر ما في فطرته من شغف بالدنيا ، بهذه الرياضة القاسية والمجاهدة الصارمة .

ولسنا نقول في هذا برأى ، وما ينبغي لنا ، بل الكلمة فيه لأبي العلاء .

وقد قالها بصدق مثير وصراحة مؤثرة ، فيما ترك لنا من آثار

(١) ناقشت هذه القضية بمزيد تفصيل في الفصل الأول من « النفران : دراسة نقدية » وفي « الحياة الانسانية عند أبي العلاء » . الكتابان نشرتهما دار المعارف بالقاهرة .

الشر الثاني من حياته .

وظل يقولها إلى أن استراح بالموت من عذاب المكابدة !
فلنصغ طويلاً إليه وحده ، لعل صوته ينفذ إلى أعماق وجداننا
فينسخ بصدقه ما رسبَ في هذه الأعماق من أقاويل عنه ، ويكشف
لنا عن عالمه النفسي ، لنراه على حقيقته ، وراء الظلال التي مسخته أو
حجبتة .

ولنبداً معه (بالفصول والغايات) التي بدأ يُملئها إثر انسحابه من
بغداد إلى محبسه معرة النعمان ، وفيها جوارٌ من حرقه الظمأ ، ولهفة
على راحة من اليأس لا تبدو قريبة المنال .

« إنما أنا رجلٌ بُلِّيَ بالصدى ، لا يجد أبداً مورداً ، فهو ظمآنٌ
أبداً ! إن وَرَدَ غروفاً وجده مضافاً ، وإن صادف نزوعاً أعوزته الآلةُ
والمعين ... » (١)

« أيتها الدنيا البالية ، ما أحسن ما حلتك الحالية ! والنفسُ عنك
غيرُ سالية .. » .

« بي طِبُّ فأين أستطب ، وأنا تحت حُبِّ الدنيا محب ، أثقلني
فأنا مُكبٌّ .. » (٢) .

« زُوِيْتُ عني الدنيا فأسِفْتُ ، وأشفقتُ لذلك وخفت ، وأحجبت

(١) الصدى : أشد الظمأ لا يرثوي . الغروف : البئر قريبة المتناول والورد ، يفترق ماؤها في يسر .
المضاف : عل ضفاه زحام الواردين .

النزوع : البئر الصعبة المورد ، يتزع ماؤها بأشد العسر .

(٢) طب : داء . استطب : أطلب الطب وألتبس العلاج . محب : رازح .

لها وشنفت . ولو أنصفتُ لِعَفْتُ ما أستوبله فما نشفتُ « (١) .

« رضيت بالحضمضِ على مضمضٍ »

« لا أكتمك - مولاي - ما أنت به عليم : إن أسفي على الدنيا طويل... »

« أحب الدنيا كأنها تحبني ، والغريزة عن الرشدِ تدبني ... »

« أحبُّ الدنيا وآلتها ليستُ فيَّ ! وقد بثت من بلوغها واليأسِ

مريح ، فالأم التشوفُ والضلال ؟ » .

وقال في (اللزوميات) من شعر ما بعد الإياب من رحلة التحدي

والمقاومة :

وصدقتُ هذا العيشَ في حيي له

واغترني بخداعه وكذابه

عذبُ يعذبني البقاءُ وللردى

يوم يخلص من فنون عذابه

نحنُ البريةُ أمسى كلُّنا دَنَفًا

يُحِبُّ دنياه حُبًا فوق ما يجبُ

وكلكمُ يُبدي لدنياه بغضةً

على أنه يخفي بها كمدَّ الصبِّ

(١) أستوبله : أجده ويلا .

لو أن عشقك للدنيا له شبح
أبديته ، ملأت السهل والجبال

شقينا بدنيانا على طول ودّها
فدونك مارسها حياتك واشقها
ولا تُبدين الزهد فيها فكلنا
شهيد بأن القلب يُضمر عشقها

أيها الدنيا لحاك الله من ربة دلّ
ما تسلى خلدي عنك وإن ظن التسلي

أشربتُ حبك لا ينفيه عن جسدي
سوى ثرى لدماء الإنس شراب

صحبتُ عيشاً أعانيه ويغلبني
مثل الوليد يقود المصعب السدما
وقد ملتُ زماناً شره لهب
إذا دنا لخبو عاد فاحتما

تنازعتني إلى الشهوات نفسي
فلا أنا منجح أبداً ولا هي !

أَقَمْتُ بِرَغْمِي ، وَمَا طَائِرِي
بِرَاضٍ إِذَا أَلْفَتَهُ الْوُكُـونُ
وَلِي أَمَلٌ كَأَنَّ الْقَنَسَا
وَحَالٌ كَأَقْصَرِ سَهْمٍ يَكُونُ

إِلَهَ الْأَنْعَامِ وَرَبَّ النَّمَامِ
لَنَا الْفَقْرُ دُونَكَ وَالْمَلِكُ لَكَ
إِذَا أَنَا لَمْ أَغْنِ فِي لَذَّةِ
أَمَفْتُ وَضَاقَ عَلَيَّ الْفَلَكَ

أَبَى الْقَلْبُ إِلَّا أُمَّ دَفَرٍ كَمَا أَبَى
سِوَى أُمَّ عَمْرٍو مَوْجِعَ الْقَلْبِ هَائِمٌ
هِيَ الْمُنْتَهَى وَالْمُشْتَهَى ، وَمَعَ السَّهَا
أَمَانِي مِنْهَا دُونَهُنَّ عِظَائِمُ

نَفْسِي بِهَا وَنَفُوسُ الْقَوْمِ مُلْهَجَةٌ
وَنَحْنُ نَخْبِرُ أَنَّ لَا نَبَالِيهَا
أَمْرَتَنِي بِسَلْوٍ عَنِ خَوَادِعِهَا
فَانظُرْ ، هَلْ أَنْتَ مَعَ السَّالِينَ سَالِيهَا ؟
وَلَا تَرَى ، الدَّهْرَ ، إِلَّا مَنْ يَهِيمُ بِهَا
طَبْعاً وَلَكِنْ بِاللَّفْظِ قَالِيهَا

.....

قد يقال إنه كابد هذا الشغفَ بالدنيا في مستهل عهده بالعزلة
والحرمان . ثم برىء منه على تطاول الزمن .
لكن من أبيات اللزوم ، ما يشهد بأنه ظل يلوب حول الماء من
ظلماً .

في الخمسين ، شكا ظمأه وجذبَ حياته :
علقت بحبلِ العيشِ خمسين حجة
فقد رثاً حتى كاد ينصرم الحبل
وهل ينفع الطلُّ الذي هو نازل
بذاتِ رمالٍ عندما جَحَدَ الوَبْلُ
وبعد أن جاوز الخمسين من عمره :
أسيرٌ عن الدنيا وما أنا ذاكر .
لها بسلامٍ إن أحداًها حُسن
ضرورة ما حالين : ما لكعابها
ولا الركن ، تقبيلٌ لديّ ولا لمسُ
لعمري لقد جاوزت خمسين حجة
وحسبي عشر في الشدائد أو خمس
وأجهر حيناً ثم أهمس تارة
وسيان عند الواحدِ الجهرُ والهمس

•••••

بلى لدينا من شعر اللزوميات كذلك ، شواهد على ما ظل يكابده في
مشيخته من عجزٍ عن راحة اليأس وخمودِ اللهب في أعماقه . وقد نعلم

أنه وإن أحس بوادر الشيخوخة في كيانه إبان رجولته قبل الإياب من بغداد ، فإن شيب شعره تأخر طويلا عن أوانه ، بشاهدٍ من صريح قوله في اللزوميات :

أيا مفرقي هلا ابيضضتَ على المدى

فما سرني أن بتَّ أسودَ حالكا

قبيح بفود الشيخ تشبيهُ لونه

بفود الفتى ، والله يعلم ذلكا

وكان يدنو من الستين ، حين أرسل يعتذر إلى صديق ببغداد

كاتبه بعد عشرين حولا من إيبابه ، فذكره بعهد مودتهما :

مُدَّ الزمانُ وأشوتني حوادثُه

حتى مللت وذمت نفسي العمرا

وحلت كلِّي سوي شيبٍ تجاوزني

ولم يُبيض على طول المدى الشعرا

جنيت ذنبا وألهي خاطري وسنُّ

عشرين حولا ، فلما نُبِّه اعتذرا

فلنصغ إلى أنين عذابه من حب الدنيا ، ومقهور أشواقه ، بعد أن

شاب في الشيخوخة العالية :

ولي أملٌ قد شُبتُ وهو مضاجعي

وساودني قبيل السواد وما هَمَّا

لأمواءِ الشبيبة كيف غَضِنه
وروضات الصبا كاليس إضنه
وآمالُ النفوس مُعلّلاتُ
ولكن الحوادث ينتقضنه
فلا الأيام تفرغ من أذاة
ولا المهجات من عيشٍ غرضنه

بليّ الجبلُ والغزاةُ فوق الأرّ
ضٍ لم يبَلْ خيطها المفزولُ
وأنا العودُ ، قلبه أضمر الشو
ق ، ولكن ظهره مجزولُ

تباركت يا ربّ العُلا أنت صُغتّها
فليتك في أرزائها لم تُبارِك
أعانقها عند الوداع تشبثا
وكيف وداع بين قالٍ وفارِك

وحق ما قال : كيف وداع بين قالٍ وفارِك ؟
ذلك هو أعجب ما في أمره مع الدنيا .
قلاها ونفرت منه فاركا مبغضة ما أقبلت عليه قط . وأعياه مع
قسوة مجاهدته أن يبرأ من دائها المقيم ، وأن يقهر ما في بشريته من

تعلق فطريً بهذه الدنيا على مرارة كأسها .

♦♦♦♦

من مرحلة الشيخوخة أيضا ، جاءتنا (رسالة الغفران) .

أملاها حوالي سنة ٤٢٤ هـ وهو في الستين من عمره - بعد أن أمضى نحو ربع قرن في معركة - المجاهدة - ردًا على رسالة تلقاها من « ابن القارح ، علي بن منصور الحلبي » وهو أديب معاصر لأبي العلاء ، وينسب إلى حلب بحكم مولده . على أنه نزع منها مطوفاً بالآفاق يلتمس رزقه من حرفة الأدب . وقد انقطع حيناً إلى خدمة « آل المغربي » بالقاهرة ، حين كانت لهم القيادة والرياسة والوزارة في الدولة الفاطمية ، وبقي في خدمتهم يصوغ فيهم مدائحهم إلى أن غدر بهم « الحاكم بأمر الله » فعقَّهم ابن القارح وتسلط عليهم بأفحش الهجاء . وكان قد أسرف على نفسه « في الملذات البهيمية » فلما جاوز السبعين وهنت قواه واعتزم الإياب إلى حلب التماساً لراحة الاستقرار في شيخوخته العالية ، بعد أن طال طوافه بالبلاد وتنقله ببضاعته من الأدب ، من سيّد إلى سيّد . فبدأ له أن يمهد لمقامه في حلب ، بالكتابة إلى أديبها الأكبر وعالمها الحكيم ، عن غير تعارف شخصي سابقٍ أو لقاء .

وطبيعي أن تعبر « رسالة الغفران » عن شخصية صاحبها . وأن تلائم في الوقت نفسه شخصية من كتبت له وأرسلت إليه .

والشخصيتان علي طرفي نقيض ، شكلاً وجوهراً وحياءً وخلُقاً وسلوكاً بحيث شق علينا طويلاً أن نميز في رسالة الغفران بين ما هو من ملامح شخصية أبي العلاء بكل نبلة وعفته وحرمانه ومجاهدته ، وما هو

من ملامح شخصية ابن القارح ، بكل شهوانيته ونفاقه وزيفه .
في الغفران يُطلُّ أبو العلاء من دنياه على أخراه ، ويطيل التأمُّل
في عالم بعيد يلوح له في رؤياه ، مشحونا بهمومه وأشواقه ، وهو اجسه
ومخاوفه .

وعالمه الآخر ، لا يمكن أن يكون في رؤياه ، إلا عالمَ أديب لغوي
ناقد ، مقيد ضمير محروم :

فيه عقد ما شاء من مجالس الأدب ومواقف النقد . واصطفى من
أحبَّ من شعراءَ ولغويين ، فلَقَّن ابن القارح ما يريد أن يسألهم عنه أو
يناقشهم فيه ويحاسبهم عليه . وإذ تعذر عليه أن يجد لبعضهم وسيلة
إلى دخول جنته ، مضى بابن القارح في رحلة إلى جحيم الغفران ،
ليلقاهم هنالك ...

وفي عالمه الآخر ، التمسَّت أشواق بشريته تنفيسا وريا . والقيود
التي شلَّت حركته نحو نصف قرن ، جعلته يحلم بكسرها والتحرر
منها . فملاً جنته بالحركة والصوت والرقص والغناء . وقد تعنف
الحركة فتصير عراكا وعريضة ، ويصخب الصوت قيصير صياحا
ومنافرة وجلبة .

ومن أهل جنته من يخرج للنزهة والصيد والزيارة ، وفيها تقام
المآدب الحافلة بأشهى الأطعمة وألذ الأشرطة ...

وأبو العلاء الذي ملَّ السكون وتعب من الكبت ، هو الذي يريد
لأهل عالمه الآخر أن يتفعلوا بالغضب والرضى ، والصد والإقبال ..
وأن تجوز عليهم أهواء البشرية وأعراضها ، من تشوف وحنين وعجب ،

وغرور وعقوق وشماتة ، ونسيان وغفلة .

ولاشك عندنا في أن محنته هي التي اقترحت عليه « عملية التعويض »
عن محن الدنيا ، في رؤيا عالمه الآخر : فليس يكفيه أن يصير الأعشى
أحور ، والأعمى بصيرا ، والهرم شابا ، وإنما يُعوض الذي امُتُحِن في
الدنيا بعاهة أو بلوى ، تعويضا لا يقترح مثله سوى ضرير مبتلى محروم :
فأحدُ أهل جنته بصرا ، هم الذين حُرِّموا نعمة البصر في الدنيا ،
وأجملهم عيوننا « عورانُ قيس » وأطيب نسائها نَشْرًا امرأة كانت في
الدنيا تدعى « حمدونة الحلبية » طلقها زوجها ، بائع السمط من المتاع ،
لرائحة كرهها من فمها . وأنصعن بياضا أمة تدعى « توفيق السوداء »
كانت تخدم في دار العلم ببغداد ...

أما إسرافه في حشد المتع الحسية وتشخيص الشهوات واللذات المادية ،
فَنُقَدِّر أن شهوانية ابن القارح هي التي وجهت أبا العلاء إلى أن يتفنن
له في حشد ما يعلم أنه يرضي مزاجه ويلائم هواه .^(١)
غير أننا نقدر كذلك ، دلالة هذا التفنن والإسراف ، على نفسية
المحروم وأثر القيود على وجدانه في صومه الطويل .

تلك هي رؤيا رهين المحبسين لعالمه النفسي الذي غيَّبه عنا رواج
أقواله في ذم الدنيا . فنسينا أو أنسينا بها ما أفضى به من مكابדתه

(١) هذه المقدمة في المعادلة الصعبة بين شخصيتي أبي العلاء وابن القارح ، تناولتها بمزيد بيان في
مدخل « جديد في رسالة الغفران » نشر دار الكتاب العربي ببيروت ١٩٧٢ .

لضغط بشريته المقهورة وأشواقه الفطرية الموءودة ، لا في خواطر الرؤيا
وهواجس الأحلام فحسب ، بل فيما جهر به من اعتراف بصريح
اضطراره ، وما أذاع من مطويٍّ سرِّه :
تحسر على امتناع الدنيا عليه .

ولم يكتم هذه الحسرة على عقم حياته وانقضابه بالحرمان من
الولد . وإن حاول التسلي بأن هذا الحرمان يعفيه من أن يرزأ ولدأ له
بمثل ما ابتلي به من محنة الوجود ، أو يُفجع فيه بعقوق ، وثكل :
بصريح إقراره في اللزوميات :

إذا لم يكن خلفي كبيراً يُضيعه

حمامي ، ولا طفلٌ ، فميم حياتي !

وما العيش إلا علة برؤها الردى

فخلّي سبيلي أنصرف لطباتي

ألا فكّرت قبل النسل في زمنٍ

به حللت ، فتدري أين تلقيه !

لو أن بني أفضل أهل عصري

لما آثرت أن أحظى بنسلي

فكيف وقد علمت بأن مثلي

خسيس لا يجيء بغير فسلي

وَمَنْ رُزِقَ الْبَنِينَ فغِير نَاءِ
بذلك عن نوائب مُسَقِمَاتِ
فَمِنْ تُكَلِّ بِهَابٍ وَمَنْ عَقُوقِ
وَأَرْزَاءِ يَجْتَنِّ مَصْمَمَاتِ
وَأِنْ تُعْطَى الْإِنَاثَ فَأَيُّ بؤْسِ
تَبِينُ فِي وَجْهِهِ مَقْسَمَاتِ
وَدَفْنُ الْحَوَادِثِ فَاجْعَاتِ
لإحداهن ، إحدى المكرمات !

أرى وَلَدَ الْفَتَى عَثَا عَلَيْهِ
لَقَدْ سَعِدَ الَّذِي أَضْحَى عَقِيمَا
فَأِمَّا أَنْ يُرَبِّيَهُ عَدَا
وَأِمَّا أَنْ يُخَلِّفَهُ يَتِيمَا
وَأِمَّا أَنْ يَصَادِفَهُ جِمَامِ
فَيَبْقَى حَزْنُهُ أَبَدًا مَقِيمَا

وصاح بالدنيا ، من أعماق وجدانه الجريح وعالمه المحترق بنار
الظلام :

وأصبحتُ في الدنيا غيبنا مُرَزَّاءُ
فَأَعْفَيْتُ نَسْلِي مِنْ أَذَاةٍ وَمِنْ غَبْنِ

فإن تحكمي بالجورِ فسيّ وفي أبي
فلن تحكّمه في بناتي ولا في ابني
وأوقدت لي نارَ الظلام فلم أجد
سَنالكِ بطرفي ، بل سنانك في ضبي

وأذاع سره ، لم يكتمه ، معترفاً بأنه ما زهد في النساء عن طيب
خاطر ، ومكذبا من قال إنه لا يتحسر على ما فاته منهن :
وإذا الفتى كره الغواني واتقى
مرضاً يعود ، وضره ما يطعمُ
فقد انطوت عنه الحياة ، وكاذبُ
من قال عنه : يبيت وهو مُنعمُ

أواني هم فآلقت أواني
وقد مرّ في الشرخ والعنقوان
زواني خوفُ المقام الذمّيم
عن أن أكون خليلَ الزواني
وعندي سِرٌّ بذية الحديدِ
كنتُ عنه في العالمين الغواني
إذا رَملةٌ لم تحيِّ بالتباتِ
فقد جهلتُ أن سقّتها السواني

إني أوارِي غُلَّتِي فَأُريهِمْ
رِيًّا ، وفي سِرِّ الفؤاد أوارُ

والمرءُ ليس بزاهدٍ في غادةٍ
لكنه يترقب الإمكانا

أريد لِيانَ العيش في دار شقوةٍ
وتأبى الليالي غيرَ بخلٍ وليانٍ
وما جبل الريان عندي بطائل
ولا أنا من خود الحسان بريانٍ

أسير عن الدنيا وما أنا ذاكر
لها بسلام إن أحداثها حُمسُ
ضرورة ما حالين : ما لكعابها
ولا الركن ، تقبيلٌ لديٍّ ولا لمسُ

خُمورُ الرِّيِّ لسنَ بكسلٍ حالٍ
على طُلابهن محرماتٍ
ولكن الأوانس باعثات
ركابك في مهالك مقتماتٍ

أريدُ الإناخَةَ في منزل
وقد حُدِيتُ لسواهِ جمالي
فَمَنْ مُخْبِرِي : أغريقَ البحا
رِ ألقى الردى ، أم دفينَ الوصال
هويت انفراديَ كيما يخفُّ
عمَّنَ أعاشرَ ثقلَ احتمالي
أما ليَ فيما أرى راحةً
مدى الدهر من هذيانِ الأُمالي !

ألم ترني حَمِيتُ بناتِ صدري
فما زوجتُهُنَّ وقد عنسنه
وقال الفارسون : حليفاً زهد
وأخطأتِ الظنون بما فرسنه
ورُضتُ صعابَ آمالي فكانت
خيولاً في مراتعها شَمْسَنَه
ولم أعرض عن اللذاتِ إلَّا
لأنَّ خيارها عني خنسنه

أطارقَ همُّ ضافٍ ، هل أنتِ عاذر
متى لم تجد لي عند مرتحلٍ طرفاً

وأعوزني ماءٌ أزيل به الصدى
فلا عيش إن لم أشرب الكدرَ الطرُقا
وحبِّيَ للدنيا كحبِّك خالصا
وفي عنقينا من هوى جَعَلَتْ رَبَقَا

لُبْتُ حول الماء من ظميا
إن غرِبي ما له مَرَسُ
مُهَجَّتِي ضِدُّ يَحَارِبِنِي
أنا مني ، كيف أحترسُ

.....

ماذا كان عساه أن يصرح بأكثر من هذا ، لنحس معاناته الباهظة
لما كاشفنا به في (الفصول والغايات) حين بدأ صيامه الطويل ؟
« أحب الدنيا وآلتها ليست في » ، وقد يثست من بلوغها واليأس
مريح ، فإلام التشوف والضلال ؟
« إنما أنا رجل بُلي بالصدى ، لا يجد أبدا موردا ... فهو ظمآن
أبدا » .

إن تكن هذه الشواهد كلها ، ومثلها معها ، من أحلام الشعراء -
وقياسُ أبي العلاء بهم مع الفارق الكبير - فكيف لا تعبر الأحلام
عن العالم النفسي لشاعرنا الذي ما عهدنا عليه كذبا قط ؟ (1)

(1) اكتفيت هنا بإيراد الشواهد من كلمات أبي العلاء الكاشفة عن سره ، دون أن أتجاوزها إلى
تفسير ، على نحو ما فعل أستاذنا الخولي .

ثم ، أليست من هذا الوادي ، أقواله الأخرى في ذم الدنيا ومقتها ،
تلك الأقوال التي رُوِّجت فينا وجعلت وحدها مناط الحكم عليه ؟
هنا يرد السؤال :

فيم إذن كانت أقواله في مقت الدنيا والشكوى من شرها ولؤمها؟
والجواب بنص كلماته :

لأنه تمنى ، وقد أعوزته آلتها ، لو أنه استراح بالصله عنها وسكن
إلى يأسه من بلوغها ، فكان إسرافه في ذمها ، نوعاً من الإلحاح في
المجاهدة ، وحمل نفسه على الزهد فيما لا يُنال .

وأعياه مع ذلك أن يقهر ما رسخ في فطرته من تعلق بالدنيا وشغف
بها ، فما استطاع أن يكتم ما يجد من لهات الظم وحسيس النار المشبوبة
في أعماقه ، والأنين من مرض لا يبرأ وحب لا رجاء فيه ولا راحة منه :

أما وفؤادٍ بالفقرام قريح

ودمعٍ بأنواع الهموم سريح

ألئلي ، وكلُّ أصبح ابن ملوح

ولئني ، وما فينا سوى ابن ذريح

وليس لنا في مدة العيش راحة

فكيف بموتٍ من أذاك مريح

وتعقيد سلوان الفتى عنك نفسه

بأذيالٍ برق أو ذائب ريح

وما زال في بلواك مذ يوم وضعه

عليك ، إلى أن عاد رهن ضريح

طلبت شفاء منكِ واهتجتُ سائلا
بذاك أبا سلمان وابنَ بَرِيح

•••••

من هنا كان عذابه وكانت مجاهدته .
لم يجد مدى الدهر راحة من هذيان الأمانى .
ولا ظفر براحة اليأس من دنيا أحبَّها وآلَّتها ليست فيه .
وبلغت به المكابدة أقسى مداها ، ففكر في الخلاص بالموت من
محنة الوجود ، وحدد وسيلة هذا الخلاص بالإمساك عن الطعام والشراب ،
لولا أن عزَّ عليه ذلك أيضا ، وحال دونه الإشفاق من التبعة ، والرغبة
من غوائل السبيل .

فذلك قوله في (الفصول والغايات) :
« لو أمِنْتُ التَّبِيعَةَ ، لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب حتى أخلص
من ضمك الحياة . ولكني أرهب غوائل السبيل ... » .
وألحت عليه الفكرة ، فقال في اللزوميات :
لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة

مخشية لاعتراها الناس أفواجا
وكان كل من أَلقت الدنيا عليه أذى
يؤمها تاركها للعيش أمواجا
كأس المنية أولى بي وأروح لي
من أن أعالج إثراء وإحواجا

•••••

وظلت تساوره ، لم تبرح خاطره ، وهو في الستين من عمره ،
يملي من (رسالة الغفران) :

« قد كدتُ ألحق برهط العدم ، من غير الأسف
ولا الندم ، ولكنما أخشى قدومي على الجبار... » .
وكم تمنى لو أن أحداً باعه حياته بمئة سهلة ، فيتخلى له عنها غير
نادم :

من باعني بحياتي مينة سرحا
بايعته ، وأهان الله من ندما

لكن أحدا لم يملك. أن يعقد معه هذه الصفقة ، كما لم يملك هو
لنفسه أن يريحها بالموت من ضنك الحياة ، فلم يبق له إلا أن يلوذ
بالله ضارعا أن يعجل بخلاصه من الدنيا ، وإنه تعالى لمرجو أن يلفظ
به في الأخرى ، بعد ما طال بلاؤه :

« حمدا لك إلهي ! لا أعلم وقتَ إسكانك لي في دار البلاء ، وقد
عشتُ فيها ما شئتَ وأعيش فيها ما تشاء . وأنا شكٌ إليك أثقالَ الزمن ،
فإذا قضيتَ عنها الرحلةَ فأعني على تلك الغُصص والغمرات ، فأني
منها فَرِق ، وبني من الحياة ملل ... » .

« والطف مولاي بضعيفك إذا اقترى ، ونزل في بطن الأرض عن
القرى . ضعيفك ولكل ضعيفٍ قرى . ما أجدرك بالرأفة وما أحرى .. » .
(الفصول والغايات)

ويعلل نفسه بالأمل المرجو في دنو يوم الخلاص فينشد :

إذا غدوتُ ببطن الأرض مضطجعا
فثم أفقد أوصابي وأمراضي

إذا طُفئت في الثرى أعيُن
فقد أمِنْتَ من عمى أو رمد !

.....

لكن انتظاره ليوم الخلاص يطول ، ويطول معه تبعه وعذابه فيئن
شاكيا :

إن يرحل الناس ولم أرتحل
فَعَنَ قِضَاءٌ لِمِ يَفُوضُ إِلَيَّ
خُلِّفْتُ مِنْ بَعْدِ رِجَالٍ مَضَوْا
وَذَاكَ شَرٌّ لِي وَشَرٌّ عَلَيَّ

وما أقسى أن يكون الموتُ أملا للشاعر الذي عمق إحساسه بمحنة
الموت وجاءت مراثيه في أهله وأصحابه ، مرثية للإنسانية المقودة برغمها
إلى البلى والعفن ، لا ينجيها من هذا المصير المحتوم عاصم ، ولا تدفعه
عنها حيلة طبيب أو رقية راق أو دموع أهل وتفجع أحباب !
وأستدرك فأقول إن الخلاص بالموت لم يكن أملاً لأبي العلاء ،
بل كان من هذيان أمانيه . فمع إشفاقه من التبعة ورهبتة غوائل السبيل ،
كان التعلق الغريزي بالحياة ، يشده إليها بأغلال تكذب الأمل في
الخلاص منها بالموت ، وذلك ما عرفه أبو العلاء من قديم دهره الأول .

وقال وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، يرثي أباه :

وجَدْنَا أذى الدنيسا لذيذا كأنما

جَنَى النحل أصنافُ الشقاء الذي تجني

فما رغبتُ في الموت كُذْرُ مسيرها

إلى الوردِ خمسُ ثم يشربن من أجنِ

يصادفن صقرا كلُّ يومٍ وليلة

ويلقين شرا من مخالبه الحُجْنِ

ولا فلقاتُ الليل باتت كأنها

من الأين والإدلاج بعضُ القنا اللُدُنِ

وخوفُ الردى آوى إلى الكهفِ أهله

وكلفُ نوحاً وابنه عمَلِ السفنِ

وما استعذبتهُ روح موسى و آدم

وقد وُعِدَا من بعده جنتي عَدُنِ

.....

فإن يكن عَجِبَ لهذا في دهره الأول ، وتساءل في مرثيته الدالية :

تعب كلها الحياة فما أء

جبُ إلا من راغب في ازدياد

فقد استيقن رهين المحبسين من الجواب ، بعد أن طالت مجاهدته

للدنيا ، وأضناه حمل نفسه على السلو عنها ، وعاد يتساءل في قنوط

واستسلام :

مُهْجِي ضِدُّ يَحَارِبُنِي أَنَا مَنِ ، كَيْفَ أَحْتَرَسُ ؟

.....

الأديب الحر

أعاذل قد ظلمتنا الملو
كُ ، ونحن على ضعفنا أظلم
أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

• • •

لن نستطيع أن نقدر أبا العلاء حق قدره ، ما لم نتحرر من فكرة انتصاره على الدنيا وزهده النفسي فيها ، بمجرد أن أعلن انسحابه منها . إذ لو صح القول بأنه « وطئها بقدميه فانقادت له » كما قرر الأستاذ عبد العزيز الميمني ^(١) « وملاً قلبه عن لذاتها بالعزاء النافع والصبر الجميل » كما قال أستاذنا الدكتور طه حسين ^(٢) ،

(١) في كتابه : (أبو العلاء وما إليه) .

(٢) في : (تجديد ذكرى أبي العلاء) .

أو لو صح الزعم بأن الزهد كان طبيعة فيه ، على ما شاع فينا
وذاع ،

لما كان في سلوكه ما يغري بالوقوف عنده أو يحمل على شيء من
تقديرٍ خاص . إذ ليس أهون عليه من حرمانٍ يستجيب لما في طبعه من
زهدٍ فيما صدَّ عنه ، وعزوفٍ عما امتنع منه ...

ولئنما كان سلوكه موضع تقديرنا وإجلالنا ، لأن الرجل استطاع
مع حبه للدنيا وإقراره بالعجز عن السلو عنها ، أن يصبر على ذلك الحرمان
الطويل الصارم ، فقدّم لنا مثلاً فذاً لبسالة المجاهدة ، وكشف عما
يمكن أن تطيقه بشرية الإنسان من بطولة الاحتمال .

وإذا لم يكن قد أفلح في قهر حب الدنيا في نفسه ، فإنه قد استطاع
أن يمضي في مجاهدته لها بإرادة عجيبة فذة ، وصمد للتجربة حتى
آخر العمر ، على قسوة ما كابد من أشواق بشريته المكبوتة ، وما
لقي من عنت خصومه وجدل مناظريه ، وسخط من نقموا عليه مخالفة
الجماعة والخروج على سننِها وأعرافِها .

وفي البحث الذي مضى عن « مناخ العصر » ما يعطينا ملامح البيئة
العامة التي عاش فيها أبو العلاء ، وما وصلت إليه من فساد وشر . وقد
اعتزلها ولكنها لم تعتزله ، وانسحب منها لكنها شغلته وشُعلت به .
من ثم ، لم يكن في طاقته أن يجمد إحساسه بشرور العصر ويعطل
تفكيره في فساد المجتمع ، وإنه لفي عزلته ، وبها ، مرهف الحس
يقظ الوجدان طليق التأمل نافذ البصيرة .

كلا ، ولا كان بقادر على أن يلجم لسانه ، وقد تحرر من قيود

الرغبة فيما لدى أي مخلوق ، والرغبة من ذي سلطان . وهو ما باع الدنيا على حبه الغريزي لها ، إلا لكي يشتري كرامة نفسه وحرية تفكيره وصدق كلمته ، فيجهر بما يكتمه غيره تقية ومداراة ، ويصدع بالحق الذي يخونه سواه نفاقا ومراعاة .

وماذا عسى أن يفعل أو يتال منه ، الذين يكشفهم سلوكه العملي ، وترزعجهم كلمة حق يقولها احتجاجا ورفضاً ؟

هل يحددون إقامته ؟

أو يمسكون عنه الرزق ويقطعون عنه صلة تأتيه من ذي جاه ؟

أو يؤذونه في عرضه وبنيه ؟

لقد سد عليهم كل طريق :

حدد لنفسه الإقامة في محبسه لا يبرحه ما عاش .

وقنع من الرزق بما دون الكفاف لا يلتمس فيه زيادة عن إيراد

الوقف الضئيل .

وليست له زوجة تثقله بعبء ومطلب أو تشغل باله بهم وفكر ...

ولا ولد له يحمل همّه ويجبن بسببه أو يخشى عليه أذى من

متسلط ...

وإنه لنقيّ العرض طاهر السلوك نظيف السيرة ، عفّ اليد والجوارح

والضمير .

فماذا بقي له عند الناس ، وقد انسحب من السباق وتخلّى لهم

عن الدنيا وما فيها ؟

باعها أشد ما يكون شغفا بها ، واشترى شرفه وكرامته وأمانته ،

في عصر أذلَّ الحرصُ فيه أعناق الرجال .
ووجدَ رسالته النبيلة في انتظاره ، من يوم أن انسحب إلى محبسه
احتجاجاً عملياً على فساد البيئته وضلال المقاييس واختلال القيم ، وتكليفاً
صعباً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فهو وحده ، ولا أحد سواه ، من يجزؤ على أن يصدع جبروت
الحُكَّام وطغيان الأمراء والولاة وانحراف الساسة بمثل قوله :

مُلَّ المَقَامُ فكمُ أَعَاشرُ أُمَّة

أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها

وعدّوا مصالحها وهم أجراؤها

لقد ساس أهل الأرض قوم تفتقت

أموراً فما ألفت لهم يد راتق

أما لأمير هذا المصير عقل

يقيم عن الطريق ذوي النجوم

فكم قطعوا السبيل على ضعيف

ولم يُعفوا النساء من الهجوم

يكفيك حزناً ذهاب الصالحين معاً

ونحن بعدهم في الأرض قطان

إن العراق وإن الشام منذ زمنٍ
صفران ما بهما للملك سلطان
ساس الأنام شياطين مسلطة
في كل مصرٍ من الوالين شيطانُ
من ليس يحفل خمصَ الناس كلهم
إن بات يشرب خمرا وهو مبطان
تشابه النجرُ : فالروميُّ منطقهُ
كمنطق العرب ، والطائيُّ مِرطانُ
متى يقوم إمامٌ يستقيد لنا
فتعرفَ العدلَ أجيالُ وغيطانُ
صَلُّوا بحيث أردتم فالبلادُ أذى
كأنما كلها للإبل أعطانُ

ألفنا بلاد الشام إلفَ ولادةٍ
نلاقي بها سودَ الخطوب وحمرها

.....

فإني أرى الآفاق دانت لظالم
يغر بغاياها ويشرب خمرها

كل الديار ذميم لا مقام به
وإن حلت ديار الوبل والرهم

إن الحجاز عن الخيرات محتجز
وما تهامة إلا معدن التهشم
والشام شوم وليس اليمن في يمن
ويثربُ الآن تثريب على الفهم

بكل أرض أمير سوء
يضرب للناس شر سكة

قد كثر الغش واستعانت
به الأشداء والأرگه
فخلهم والذي أرادوا
وحل بالقدس أو بمكه
صكهم الدهر صك أعمى
تكتب أيدي الفناء صكه

يا رب أخرجني إلى دار الرضى
عجلا فهذا عالم منكوس
ظلوا كدائرة تحول بعضها
من بعضها ، فجميعها معكوس
وأرى ملوكا لا تحوط رعية
فعلام تؤخذ جزية ومكوس ؟

يسوسون الأمور بغير عقل
فينفذُ أمرهم ويقال ساسه
فأفَّ من الحياة وأفَّ مني
ومن زمنٍ رئاسته حساسه

ظلمٌ مُستضعفٍ وأخذ مكوسٍ
وحياة في عالمٍ منكوس

حكم الناسَ ولاةٌ مثلما
حكمت قبلُ خصاةٌ وزلم

أيا والي المصّر لا تظلمن
فكم جاء مثلك ثم انصرف
تواضع إذا ما رُزقت العلاء

فذلك مما يزيد الشرف
وإن ألبس الله ثوب الشفاء

فلا تؤثرن عليه الترف
تغيض المياه وقد طالما

تيممها واردٌ فاغترف
ومن أمنتته خطوب المنون

تخوف من هرمٍ أو خرف

يقارن مستكبرات الذنوب

ويغفل عن ذنبه المقترف

•••••

قد أسرف الناس في الدعوى بجهلهم

حتى ادَّعوا أنهم للخلق أرباب

إلبابهم كان بالذات متصلاً

طول الحياة وما للقوم ألباب

•••••

لعمرك ما في عالم الأرض زاهد

يقيناً ولا الرهبان أهل الصوامع

أرى أمراء الناس يمسون شرهم

إذا خطفوا خطف البزاة اللوامع

وفي كل مصرٍ حاكمٌ فموفق

وطاغٍ يحابي في أخس المطامع

يجور فينفي المُلْك عن مستحقه

فتسكب أسرابُ العيون الدوامع

ومن حوله قوم كأن وجوههم

صفاً لم يُلَيَّنْ بالغيوثِ الهوامع

عدولٌ لهم ظلم الضعيف سجية

يُسْمُونُ أعرابَ القرى والجوامع

•••••

مَنْ سَوَى رَهِينِ الْمُحْسِنِينَ ، يَجْرُؤُ عَلَى أَنْ يَحْقِرَ كِبْرِيَاءَ الْأَرْبَابِ
وَيَسْفَهَ غُرُورَهُمْ وَيَفْضَحَ لِلرَّعِيَةِ زَيْفَهُمْ بِمِثْلِ قَوْلِهِ :
وَمَنْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ رَبُّ مَلِكٍ
يُرِيدُ رَعِيَّةً أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ

كَذَبَ الَّذِي سَمَّى الْمَلِكَ قَاهِرًا
نَحْنُ الْأَذَلَّةُ وَالْإِلَهُ الْقَاهِرُ
وَكَذَلِكَ يُدْعَى طَاهِرًا مَنْ كُلُّهُ
نَجَسٌ ، وَيَفْقَدُ فِي الْأَنْسَامِ الطَّاهِرُ

تَلْقَبُ مَلِكٌ قَاهِرًا مِنْ سَفَاهَةٍ
وَاللَّهُ مَوْلَاهُ الْمَالِكُ وَالْقَهْرُ

لَمْ أَرْضَ رَأْيَ وِلَاةٍ لَقَّبُوا
مَلِكًا بِمُقْتَدِرٍ وَآخِرَ قَاهِرًا
هَذِي صِفَاتُ اللَّهِ جَلُّ جَلَالِهِ
فَالْحَقُّ بِنِ هَجَرَ الْغَوَاةَ مُظَاهِرًا
كَمْ قَائِمٌ بَعْضَاتِهِ مَتَفَقِّهًا
فِي الدِّينِ ، يُوَجِّدُ حِينَ يُكْشَفُ عَاهِرًا

وَعَلِمْتُ قَلْبَ الْمَرْءِ يَغْرُقُ فِي هَوَى
دُنْيَاهُ ، خَابَ مَكَاتِمًا وَمَجَاهِرًا

يُسمون بالجهل عبدَ الرحيم
وعبدَ العزيز وعبدَ الصمد
وما بلغوا أن يكونوا له
عبدا ، وذلك أقصى الأمد

إذا مدحوا آدميًّا مدحتُ مولى الموالى وربَّ الأمم
وذاك الغنيُّ عن المادحيين ولكنَّ لنفسي عقدت الندم
له سجدَ الشامخ المشخر م على ما بعزيبه من شمم
ومغفرة الله مرجوة إذا حُبست أعظمي في الرمم
مجاور قوم تمشي الفنا ء ما بين أقدامهم والقمم
رأيت بني الدهر في غفلةٍ وليست جهالتهم بالأمم
فنسكُ أناس لضعف العقو ل ونسكُ أناسٍ لبُعد الهمم

.....

وإذ لا يفجر الحكام وحاشيتهم ، وفي الأمة حُرَّاسها الأنقياء الآمرون
بالمعروف الناهون عن المنكر .

فمن غير هذا الضرير يفتح بصيرة الرعية على نفاق الشعراء وزيف
محترفي التدين والعلم ونفعية أصحاب المذاهب :

فرقا شعرتُ بأنّها لا تقتني خيرا ، وأن شرارها شعراؤها
وتجادلت فقهاؤها من حُبّها وتقرأت لتنالها قراؤها

وما أدبَ الأقوامَ في كل بلدة إلى الميّنِ إلا معشرُ أدباءِ

قد حُجِبَ النور والضياء وإنما ديننا ، رياء
وهل وجود الحيا أناسا منطويا عنهم الحياء
يا عالمَ سوء ما عَلِمنا أن مُصَلِّيكَ أتقياءُ

لا يكذبنَ امرؤ جهول ما فيك لله أولياءُ
ويا بلادا مشى عليها أولو افتقار وأغنياءُ
إذا قضى الله بالمخازي فكلُّ أهليكِ أشقياءُ

فقدت في أيامك العلماء وادلهمت عليهم الظلماءُ
وتَغَشَّى دهماءنا الغيُّ لما عَطَلت من وضوحها الدهماءُ
خلّني يا أخخي أستغفر الله فلم يبق في إلا الذماءُ
ويقال: الكرام قولا وما في ال مِضِر إلا الشخوص والأسماءُ

رويدك قد غررت وأنت حر
بصاحب حيلة يعظ النساء

يحارب فيكم الصهبا صباحا
ويشربها على عمد مساء
تحسأها فمن مزج وصرف
يُعلُّ كأنما ورَدَّ الحساء
يقول لكم غدوتُ بلا كساء
وفي لذاتها رهَنَ الكساء

يقولون في المصر العدولُ ، وإنما
حقيقة ما قالوا : العدولُ عن الحق

تستروا بأُمور في ديانتهم
وإنما دينهم دينُ الزناديق
نكذب العقل في تصديق كاذبهم
والعقل أولُ بإكرام وتصديق

ما فيهمُ برٌّ ولا ناسك
إلا إلى نفع له يجذب
أفضلُ من أفضلهم صخرة
لا تظلم الناس ولا تكذب
لعل أناسا في المحارِبِ خوَّفوا
بآيٍ ، كناسٍ في المشاربِ أطربوا

تدين غاويهم حذارَ أميرهم
فلما انقضت أيامه ، ذهب النسك
فأصبح من بعد التمسك بالتقى
لأردانه من طيبِ فاجرةٍ مسك
وهل ينفع التمسكُ والمسكُ تحته
خبيث نبيث والذي فوقه المسكُ

إذا رؤساءُ الناس أمُّوا تنازعوا
كتوس الأذى ، هل في الزجاجة عندمُ
ولم يرضهم شرب المدامة أذهبت
حجى النفس ، إلا أن يمازجها الدمُ

جهلتُ : أفاضي الريُّ أكثرُ مأثماً
بما نصَّه ، أم شاعر يتغزل
وأعلم أن ابن المعلم هازل
بأصحابه ، والباقلاني أهزلُ
وقارئكم يرجو بتطريبه الغنى
فأض كما غنى ليكسب زلزُلُ

أرجئوا أو اعتزلوا فإني
عن مقامكم بمعزلٍ

إنما هذه المذاهب أسيا

ب لجلب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يَرُقُّون لدمع السماء والخنساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبصرة والقرمطي بالأحساء

.....

ثم ، من غير أبي العلاء ، يجرؤ على أن ينغص عيش الظالمين
ويؤرق بال المترفين بمثل قوله :

خِيفَ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَهِيَ سَرِيعَةٌ

طلعت فجاءت بالعذاب النازل

عُزِلَ الْأَمِيرُ عَنِ الْبِلَادِ وَمَا لَهُ

إِلَّا دَعَاءٌ ضَعِيفُهَا مِنْ عَازِلٍ

لا شيء في الجو وآفاقه

أَصْعَدُ مِنْ دَعْوَةِ مَظْلُومٍ

خاب الذي سار عن دنياه مرتحلا

وليس في كفه من دينه طرف

لا خير للمرء إلا خيراً آخرة

يبقى عليه فذاك العز والشرف

نرجو السلامة في العقبى وما حسنت

أعمالنا فيرجى الفوز والغرف

ما بان قوم عن الأولى بما جمعوا
من الحطام ولكن بالذي أقرفوا
يعرى الفقير وبالدينار كسوته
وفي صوانك ما أعداده خرف !

والناس ضأن تساوت في غرائزها
يلقون بالأرض كفا كلما افترعوا
ويدعي الرتبة العليا أخسهم
فما يجاب لهم داعٍ إذا ضرعوا
وأدرکوا بدعاويهم مدى زحل
من الرغام بما قاسوه أو ذرعوا

أتقِ الواحد المهيمَنَ فاللهُ أولُ
إن قوما لما يكو ن حراما تأولوا
رغبوا الناس في المحا لٍ وراعوا وهولوا
ضربوا في البلاد عصرا فظافوا وجولوا
خولوا نعمة فلم يشكروا ما تخولوا
واستطالت على الورى عُصبٌ ما تطولوا
طلب الناقد القليلَ فمانوا وسولوا
ظلموا البائس الفقير وأعطوا ونولوا
واستمالوا قلوب قو مٍ إلى أن تمولوا

فانظروا الآن فيهمُ أي غولٍ تغولوا

•••••

يُباين شكلٌ غيرَه في حياته
فإن هلكا لم تُلفِ بينهما فرقا
ومن يفتقد حال الزمان وأهليه
يذم بهم غربا من الأرض أو شرقا
يجد قولهم مينا وودهم قلى
وخيرهم شرا وصنعتهم خرقا
وبشرهم خدعا وفقرهم غنى
وعلهم جهلا وحكمتهم زرقا
إذا طلبوا أقصى العلا اتخذوا له
بصم العوالي في تراتبكم طرقا
إذا كنتم أوراق أثل زهوا لكم
جراد نبال كي تبيدكم ورقا
هم الناس : أجبال شوامخ في الذرى
وأودية لا تبلغ الأكم والبرقا
فسكران يُسترقى ويبدل بسلة
وآخر صاحي اللب يُغضب أن يرقى

•••••

عجبتُ وكم عجب في الزما
ن لرأي بني دهرك الفائل

فعمقتا لما أورثوا من غنى
وما وهبوه من النائل
فلا تمحلنَّ لهم مِئَّةُ
ولو بِيَتْ في صورة العائلي
ألم ترني وجميعَ الأنسا
م في دولة الكذب الذائلي

.....
أجل ، كان أبو العلاء وحده ، هو الذي يستطيع أن يقول كلمة
الحق في عصرٍ أخرست فيه السيوف والمطامع ، الألسنة والضمائر .
لقد تحرر بالمجاهدة من رغبة ورهبة ، لكنه لم يتحرر من تبعة
الجهاد ، مقاومة للطغيان والفساد والنفعية ، والدفاع عن الجماهير
التي أهدرت حرمتها وأبى عليه ضميره أن يكون في أمتة شيطانا أخرس :
فمالي لا أقول ولي لسان وقد نطق الزمانُ بلا لسان
وبيعت بالفلوس لكل خزي وجوه كاللدنانير الحسان

الليالي مغيراتُ السجايا كم جعلن الزيفان شرباً عيوف
قد غدا القوم للنضار فنالو
ه ، وبتنا ومَن لنا بالزيوف
أو لا يبصر الفتى الذهب الأح
حرَّ تُحذى به نعالُ السيوف !

وربما خامره اليأس من جدوى احتجاجه الجهير على فساد الأوضاع
وتُكر العَصْر ، وأرقه التفكير في احتمال عقم الجهاد بالكلمة الصادقة
الحرّة ، وبالانسحاب من دنيا القوم رفضاً للشر والمنكر ، لكنه لا
يلبث أن يدرك عجزه عن الفرار من تبعة الانتماء إلى الجماعة التي
تُسام الخسفَ والهوان ، فلا مفر من التزامه بأمانة قضاياها ، في عصرٍ
لم يكن فيه مجالٌ للتداعي بحق الجماعة ، واحتمال تبعة التكليف
بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فعز الفرار وقد عم الفساد :

ماذا أفدتَ بآنٍ أظلتَ تفكراً
فيها وقد أفنيتَ ليلك ساهراً
وخمولُ ذكرك في الحياة سلامة
ودهاك من أمسى لذكرك شاهراً
فتجنّبَ متوافقين على الأذى
متخالفين بواطناً وظواهرها
وأخالنا في البحر ليس بسالمٍ
منه الذي ركب الغوارب ماهراً
ملكوا فما سلخوا سبيل الرشد بل
ملأوا الديار ضوارباً ومزاهراً

وأين فراري من زماني وأهليه
وقد غصَّ شراً نجدُهُ والتهائم !
كلا ، لا مفر إلا بآنٍ يخون أمانة الكلمة وهيئات ! وهبهُ التمس

في البحر مهربا من الفساد الذي عمَّ البرَّ ، نجدهَ والتهائم ، فأنى له أن
يفر من ضميره الحر ووجدانه المرهف ونفسه اللوامة !؟

وإذا كانت الجماهير قد تبدل حِسُّها لطول ما ألفت من ظلم ،
وفداحة ما تعرضت له من تغرير وتضليل وما تسلط على وجدانها من
إلحاح في تبرير فساد الأوضاع وطغيان الحكام وضراوة الطبقية ،
فإن أبا العلاء هو القادر على أن يُحس لها ما تغفل عنه ، المكلف من
تلقاء نفسه اللوامة ، بأن يحدو مسراها في ليلها المدلهم ، ويورق غفلتها
وتبلدها لتؤثر الموت على أن تُمسخ آدميتها فنحط إلى ما دون البهم
والدواب ، وتعي مسؤوليتها عن كل ما سيمته من ضمير وهوان ، ومن
خسف ومسخ :

لعل الموت خير للبرايا	وإن خافوا الردى وتهيبوه
أطاعوا ذا الخداع وصدقوه	وكم نصح النصيح فكذبوه
وغير بعضهم أقوال بعض	وأبطلت النهى ما أوجبوه
فلا تفرح إذا رُجبتَ فيهم	فقد رفعوا الدنيء ورجبوه
وبدل ظاهر الإسلام رهط	أرادوا الطعن فيه وشذبوه
وما يحدثُ فإننا أهل عصر	قليل في المعاصر منجبوه
صبحنا دهرنا دهرًا ، وقدمًا	رأى الفضلاء ألاً يصحبوه
وغيظ به بنوه وغيظ منهم	فعدب ساكنيه وعذبوه
وهل تُرجى الكرامة من أوان	وقد غلبَ الرجال مُغلبوه
وهل من وقتهم أبغى وأطغى	على أيِّ المذاهب قلبوه !

أَجَلُّوا مُكْسِرًا وَتَنْصِفُوهُ وَعَابُوا مَنْ أَقْلَ وَأَنْبُوهُ
وَلَمْ يَرْضُوا لِمَا سَكَنُوهُ شَيْدَا إِلَى أَنْ فَضَضُوهُ وَذَهَبُوهُ
فَإِنْ يَأْكُلُهُمْ أَسْفًا وَحَقْدًا فَقَدْ أَكَلَ الْغَزَالَ مُرَبِّبُوهُ
رَجُوا أَلَا يَخِيبُ لَهُمْ دَعَاءُ وَكَمْ سَأَلَ الْفَقِيرُ فَخَيْبُوهُ
الظُّلُوا بِالْقَبِيحِ فَتَابِعُوهُ وَلَوْ أَمَرُوا بِهِ لَتَجَنَّبُوهُ
مَضَتْ أُمُّ عَلَى شَرِّ اللَّيَالِي إِذَا عَمَدُوا لِعَقْدِ أَرْبُوهُ
وَكَمْ تَرَكَوْا لَنَا أَثْرًا مَنِيْفَا يَعُودُ بِآيَةِ مَتَاوَبُوهُ
لَقَدْ عَمَرُوا ، وَأَقْسَمَتِ الرِّزَايَا لَبَسَ الرَّهْطُ رَهْطُ خَرْبُوهُ
فَأَمَا عَاتِ فِيهِ حَاسِدُوهُ وَإَمَا غَالَهُ مُتَكَسِّرُوهُ
وَاللَّارْمِينَ خَطْبَ مُسْتَفِيضٍ بَعُومَ بِلُجَّةٍ مُتَعَجِّبُوهُ
وَلَوْ قَدَرُوا عَلَى إِيْوَانِ كَسْرِي لَسَامُوهُ الرَّدَى وَتَعَقَبُوهُ
وَقَدْ مَنُوا بِرِزْقِ اللَّهِ جَهْلًا كَأَنَّهُمْ لِيَاغٍ سَبَّبُوهُ
أُدَيْلَ الشَّرُّ مِنْكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَمَاتَ الْخَيْرُ فِيكُمْ فَانْدُبُوهُ !

•••••

ويبلغ به الضيق بتبليد الجماهير أقسى المدى ، فيصب عليها من
كلماته سوط عذابٍ من سخطٍ وغضب ، ليحرمها خدرَ التنويم ، ويصب
في كأسٍ ليها قطرات من مرٍّ وعلقم ، لتفتق من سكر التضلليل :
إِنْ عَذَّبَ الْمَيَّنُ بِأَفْوَاهِكُمْ

فَإِنْ صِدْقِي بِفَمِي أَعَذَّبُ
طَلَبْتَ لِلْعَالَمِ تَهْذِيبَهُمُ وَالنَّاسُ مَا صُقُوا وَلَا هُدُّبُوا

•••••

اسكُتْ ، واخلُ مُضِلَّهُمْ وشئونهُ
ليسوقَهُم بِعَصَاهُ أو بحسامه
نُصِحُوا فما قبلوا . وباعوا كَثَكَا
من شرِّ معدنِه بقيمةِ سامِه
فكانها غمٌ ترودُ إسامها
مَنْ لا يبالي كيف حالُ مسامِه

.....

أما إذا دعا الداعي لمكرمة
فهم قليلٌ ، ولكن في الأذى حُشدُ

.....

ويقذف الجماهير بحُكمه الصارم :
أعاذلَ قد ظلمتنا اللو
كُ ونحنُ على ضعفنا أظلمُ

.....



خُصُومَةٌ وَاتِّهَامٌ

وقد نطقوا مِيناً على اللهِ وافتروا
فما لهمُ لا يفترون عليكَ !
أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

هل كان من الممكن أن يدعه كل هؤلاء الخصوم ، يكشف عن
غيِّهم وزيفهم وضلالهم ؟
أو كان من المتصور أن يُخلوا بينه وبين الجماهير المضلَّة ، يوقظ
فيها الوعي ويمزق عن بصيرتها حجاب الغفلة ، ويُلهب وجدانها بالغضب
والتمرد ؟

مثل أبي العلاء - إن كان له مثل - من يُعدُّ في نظر عصره ، وكلِّ
عصرٍ فاسدٍ ، خارجاً على المجتمع ، متمرداً بسلوكه وكلمته على أوضاعٍ

مقررة ونظم سائدة وأعراف مألوفة وموازين مُرسَّخة . وليس من طبيعة الأشياء أن يغفر المجتمع هذا الخروج المتحدي ، وأن يدع أبا العلاء يقول ما شاء ، دون أن يتصدى له بتحدٍّ مقابل ويفرض عليه عقوبة التمرد والعصيان ...

وإذ لا سبيل إلى زجره بحرمان أو إغرائه بعتاء أو عقابه بحبسٍ وجوع أو الانتقام منه في زوج وولد ، فإن في عقيدته مَنفذاً إليه من حيث لم يحتسب !

مستغلين في ذلك ، العاطفة الدينية للجماهير .

وموقنين أنها ما تكاد تسمع عنه قالة سوء تجرح عقيدته ، حتى تصد عنه وتنكره ، إن لم تلغنه وترجمه ، دون أن تترث لتتحري التهمة أو تميز حقا فيها من باطل !

وليس من الضروري أن يكون خصومه في العلن هم الذين يتصدون جهرا لتجريحه . حسبهم أن تنطلق شائعة الاتهام لا يُعرف مصدرها ، ليتطوع بترويجها الحشد الكاثر من المتدينين العافلين السذج ، غضبا لدينهم . لا يتقون في ذلك ما حُجب عنهم من هدي الآية المحكمة : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبينوا أن تُصيبوا

قوماً بجهالةٍ فتُصيبوا على ما فعلتم نادمين » - الحجرات : ٦ .

وقلَّ من أحرار الفكر والكلمة ، من لم يُتهم في عقيدته . وأبو العلاء قد خالف بسلوكه جمهور المسلمين ، فحرَّم على نفسه ما أحل الله من طيبات الرزق وزينة الحياة الدنيا ، وجهر بأقوال تم عن حيرته ، ومنها ما استطاع تأويله بما يستفز الجماهير . وجهر بأقوال أخرى

صريحة التجريح لرجال الدين على اختلاف الملل :

فمن هنا يُمكن أن يُطعن !

وقد تلقى أبو العلاء الطعنة الجارحة في حياته ، وظلت تلاحقه

بعد موته ...

وفيما مرّ بنا من حديث رحلته إلى بغداد مدينة السلام ، كلام

قيل عن مطاردة من الفقهاء ، لبيتين قالهما في اليد ، ديتهما خمسمائة

دينار ، وتُقطع في السرقة ولو كان المسروق ربع دينار :

يدٌ بخمسٍ مئينٍ عسجدٍ وُدَيْتِ

ما بالها قُطعت في ربع دينار

تحكُّمٌ ما لنا إلا السكوتُ له

وأن نعوذ بمولانا من النار

وإذا كنا ترددنا في قبول حكاية المطاردة ، فما أنكرنا أن البيتين

من شعره في (لزوم ما لا يلزم) .

ويلقانا البيتان في موقف الاتهام ، من عصر أبي العلاء : ففي خبرٍ

رواه « العيدروسي » في كتابه (النور السافر) أن الشريف الرضيّ قال

يرد على أبي العلاء :

صيانة النفس أغلثها ، وأرخصها

خيانة المال فانظر حكمة الباري

لكن هذا البيت الذي عزاه « العيدروسي » في كتابه ، وهو في أخبار

القرن العاشر ، إلى الشريف الرضي المعاصر لأبي العلاء في أواخر القرن

الرابع ، جاء في « الصفدي » في (الوافي بالوفيات) معزواً إلى « الشيخ

علم الدين السخاوي « الذي ولد سنة ٥٥٨ هـ وتوفي سنة ٦٤٣ هـ ! »^(١)

ويروون من أخباره ، عن القاضي أبي يوسف عبد السلام القزويني ،

قال :

« قال لي المعري : لم أهج أحداً قط . فقلت له : صدقت ، إلا الأنبياء عليهم السلام . فتغير لونه . »

وعن القاضي المنازي ، قال :

« اجتمعت بأبي العلاء بعمرة النعمان ، وقلت له : ما هذا الذي

يُروى عنك ويُحكى ؟

فقال : حسدني قوم فكذبوا عليّ وأساءوا إليّ . فقلت له : على ماذا

حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟

فقال : والآخرة أيها الشيخ ؟

وظل يكررها »^(٢) .

ولقيه ثالث بالآية الكريمة :

« ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » -

- الإسراء : ٧٢ .

(١) بعد عصر أبي العلاء ، أورد « القفطي » بيته مع الشعر الذي يحتكم إليه « ليعلم ما يحكى عنه من إلحاده » .

وعلق « ياقوت الحموي » على البيتين ، بقوله في (إرشاد الأريب) :

« لأن المعري حمار لا يفقه شيئاً ، وإلا فالمراد بين : لو كانت اليد لا تقطع إلا في سرقة خمسمائة دينار ، لكثرت سرقة ما دونها طمعا في النجاة (من حد السرقة) . ولو كانت تفدى (تودي)

بربع دينار ، لكثرت من يقطعها ويؤدي ربع دينار دية . نعوذ بالله من الضلال » .

(٢) القفطي في (إنباه الرواة) والعباسي في (معاهد التنصيص) .

واحتمل أبو العلاء على مفضض ، مفوضاً أمره إلى خالقه سبحانه .
وموقناً أن مثل هذا البلاء ضريبة محتومة على من يتحدى العُرف العام .
فهيئات أن يسمح المجتمع لفردٍ أن يشذ عنه ويخرج عليه .
وهم بعدُ قد افتروا على خالقهم ، فأي عجب في أن يفتروا عليه .
كما قال لنفسه :

وقد نطقوا مَيِّناً على الله وافتروا

فما لهمُ لا يفترون عليكَا ؟

ولقد كانت صلابته في الزهد والتعفف والتقشف ، مظنة أن
تحميه من الظنة والريب ، لكنها - ويا للعجب - اتُّخِذَتْ ذريعة للطعن
عليه من حيث لا يحتسب :

فالعصر الذي هُضِمَ الحقوق وأهدر الحرمات واقترف الكبائر ،
كان له في الموقف رأي آخر :

أو لم يُحرم أبو العلاء على نفسه ما أحلَّ الله من طيبات الرزق
وزينة الحياة الدنيا ، ويقنع بما يستره من خشن الثياب ، وما يقيم
أودّه من ميسور النبات ؟

يمكن إذن أن يُعدَّ الزهدُ إثماً ، والقناعةُ خطيئةً ، والصومُ عن اللذاتِ
معصية .

ومثل هذا سائغ ، متى ضلَّت المقاييس ، فهانت الكبائر المحظورات ،
على من ينكرون الزهدَ في متاع الدنيا والرغبة عن لذاتها :

لعمري لقد عزَّ المباح عليكمُ

وهان بجهلٍ ، ما يُصانُ ويُحذَرُ

وَقَدْ مَضَى الْقَوْلُ فِي تَمَارِضِ دَاعِي دُعَاةِ الْفَاطِمِيِّينَ ، لِيُحْرَجَ أَبَا الْعَلَاءِ عَلَى الْمَلَأِ مِنَ النَّاسِ ، وَكَيْفَ أَعْنَتَهُ فِي شَيْخُوخَتِهِ الْعَالِيَةِ ، بِخُصُومَةٍ مُجَهَّدَةٍ أَخْرَجَتِ الْقَضِيَّةَ مِنْ نِطَاقِ السُّلُوكِ الشَّخْصِيِّ لِزَاهِدٍ مُتَعَفِّفٍ ، إِلَى جَدَلٍ كَلَامِيٍّ فِي حِكْمَةِ الْخَالِقِ وَنِظَامِ الْكُونِ وَتَرْتِيبِ الْكَائِنَاتِ وَمَشْكَلَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ...

وَلَعَلَّهُ أَتَعَبَهُ ، لَكِنَّهُ تَعَبَ مِنْهُ دُونَ أَنْ يَفْلِحَ فِي حَمَلِهِ عَلَى أَنْ يَتَزَحَّزَحَ عَنْ مَوْقِفِهِ قَبْدَ شَعْرَةٍ ،

وَمِنْ قَبْلِ دَاعِيِ الدُّعَاةِ ، تَعَبَ مُجَادِلُو أَبِي الْعَلَاءِ وَأَتَعَبُوهُ .

نَقَلَ « الْقَفْطِيُّ » فِي (إِنْبَاءِ الرِّوَاةِ) مِنْ حَدِيثِ الْقَاضِي الْمَنَازِي فِي حِوَارِهِ لَمَعَ أَبِي الْعَلَاءِ :

« قُلْتُ لَهُ : لِمَ تَمْتَنِعُ مِنْ أَكْلِ اللَّحْمِ ، وَلِمَ تَلُومُ مَنْ يَأْكُلُهُ ؟

فَقَالَ : رَحْمَةً لِلْحَيَوَانَ .

قُلْتُ : لَا ، وَلِعَمْرِي بَلْ تَقُولُ إِنَّهُ مِنْ شَرِّهِ النَّاسِ أَنْهُمْ يَجِدُونَ مَا يَأْكُلُونَ وَيَتَجَزَّوْنَ بِهِ عَنِ اللَّحْمَانِ وَيَتَعَوِّضُونَ . فَمَا تَقُولُ فِي السَّبَاعِ وَالْجَوَارِحِ الَّتِي خُلِقَتْ لَا غِذَاءَ لَهَا غَيْرَ اللَّحْمِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ ، وَدِمَائِهَا وَعِظَامِهَا ، وَلَا طَعَامَ تَعْتَاضُ بِهِ عَنْهَا وَلَا تَتَجَزَّى بِهِ ، حَتَّى لَمْ يَخْلُصْ مِنْ ذَلِكَ حَشْرَاتُ الْأَرْضِ ؟ فَإِنْ كَانَ الْخَالِقُ لَهَا الَّذِي تَقُولُهُ نَحْنُ ، فَمَا أَنْتَ بِأَرَأْفَ مِنْهُ بِخَلْقِهِ وَلَا أَحْكَمَ مِنْهُ فِي تَدْبِيرِهِ . وَإِنْ كَانَتْ الطَّبَائِعُ الْمَحْدُثَةُ لِذَلِكَ ، عَلَى مَذْهَبِكَ ، فَمَا أَنْتَ بِأَحْذَقَ مِنْهَا وَلَا أَتَقَنَّ صِنْعَةً وَلَا أَحْكَمَ عَمَلًا حَتَّى تُعْطِّلَهَا ، وَيَكُونُ رَأْيُكَ وَعَمَلُكَ وَعَقْلُكَ أَوْفَى مِنْهَا وَأَرْجَحَ . وَأَنْتَ مِنْ إِيجَادِهَا غَيْرَ مُحْسُوسٍ مِنْهَا . وَالْمَنَازِي ،

هو مَنْ نُقِلَ عنه قوله لأبي العلاء : « على ماذا حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة » ؟

لكن المنازى ، وداعي الدعاة من بعده ، لم يفلحوا في هز إصراره العنيد على رفض دنياهم إنكارا لفساد الأوضاع وتُكر المجتمع ، « راضيا أن يلقي الله جَلَّتْ قدرته ، وهو لا يُطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحوم . فإن وصل إلى هذه الرتبة فقد سَعِدَ » .
بنص كلماته ، وهو في الخامسة والثمانين من عمره ، من رسالته الأخيرة إلى داعي الدعاة .

وحاول آخرون ، عن رفق به أو حقد عليه ، أن يقنعوه بأن يعيش كما يعيش أهل العصر ، ويخضع لنظم الجماعة وأعرافها ، وهو يبدي العذر عن رفضه ، أو قد يسكت على مضض وتعب ويأس دون أن يستجيب لما أرادوا له . وإن الأمر بينه وبينهم لكما أملى في رسالته إلى « الوزير الفلاحى » معتذرا عن عجزه عن الخروج من محبسه إلى حضرة « عزيز الدولة ، شجاع بن فاتك » والى حلبَ للفاطمية بمصر :

« وقد غدوت في قوم قبيل فيهم :

« تلك أمةٌ قد خلَّت لها ما كسبتْ ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون » .

وعَوَّت الضباعُ في أثره ، تطارده حيث اختفى رهينَ محبسه ،

وكانها تعتفيه وتلتبس منه غذاءها :
قد استخفيتُ كالجسدِ الموارى
ولكن الطوارق تختفيني
عفا أثري الزمانُ وما أغبت
ضباعُ في المحلةِ تعتفيني

.....

على أن ما عاناه من ذلك كله ، كان أهونَ عليه مما آلمه وأضناه
من افتراء المفتريين : أسأئوا تأويل كلماته وحرفوها عن مواضعها ،
وزيفوا عليه ما لم يقله ، فأحجوه - على ما يعلم من لؤم الناس - إلى
أن يدافع عن نفسه بمثل ردهُ على « القاضي المنازي » حين سأله عما
يُنسب إليه ويُروى عنه :

« حسدني قوم فكذبوا عليَّ وأسأئوا إليَّ » .

وعن « أبي اليسر المعري » قال :

« ان أبا العلاء كان يُرمى من أهل الحسد له ، بالتعطيل . ويعمل
بعضهم على لسانه الأشعار يضمونها أقاويل الملوحة قصداً لهلاكه وإثارة
لإتلاف نفسه ... »

كما أحجوه إلى حرص بالغ على توثيق أشعاره وأماله وسائر
مصنفاته ، لتكون مرجعاً وحكماً فيما يؤخذ به أو يؤخذ عليه . ولم
يحل ذلك التوثيق دون إيدائه بالتزوير عليه عمداً، مما اضطره إلى أن
يعلي (رسالة الضبعين) ويسيرها إلى أمير حلب « شمال بن صالح » يشكو
إليه فيها تحريف رجلين لبعض شعره في (لزوم ما لا يلزم) قصداً إلى

إهلاكه . ويسأله أن يرجع فيه إلى نسخ موثقة من الديوان في حلب ،
مكتوبة بخطوط ثقاتٍ من كُتّابه الأمناء الأتقياء ، قال :

« وفي حلب حماها الله ، نسخ من هذا الكتاب ، بخطوط قوم ثقاتٍ
يُعرفون ببني هاشم ؛ أحرار نسكة ، أيديهم بحبل الورع متمسكة ؛
جرت عادتُهُم أن ينسخوا ما أمليه . وإن أحضرت - النسخ - ظهرت
الحجةُ بما قلت فيه » (١) .

وكذلك استجاب لإلحاح أصدقائه وتلاميذه ، فأملى كتابه (زجر
النابح) شرحاً لما أسبىء تأويله من شعره في (لزوم ما لا يلزم) وأبطل
فيه - كما يقول ابن العديم - « طعنَ المُزري عليه والقادح ، وبين
فيه عذره الصحيح وإيمانه الصريح ، ووجه كلامه الفصيح . ثم
أتبع ذلك بكتابٍ سماه (نجر الزجر) بينَ فيه مواضع طعنوا بها عليه
بيانَ الفَجْرِ ، فلم يمنعهم زجرُهُ ، ولا اتضح لهم عُذْرُهُ » (٢) .

.....

♦♦♦♦

وشاعت كلمة السوء فيه ، ومن شأنها أن تشيع فجرُح ببعض ما
قال مما قد يوهِم ظاهرُهُ ويشكل ، وبغيره مما لم يقل . وإن أكثر مصنفاته
لفي الزهد والعظات وتمجيد الله سبحانه وتعالى . وديوان (اللزوم) نفسه
مليء بنجوى إيمانه الصادق ، وأناشيد ضراعتة للخالق ، جل جلاله ...

(١) الإنصاف والتحرى : ٥٢٧ / تعريف .

وقد صرح ابن العديم بأنه وقف على (رسالة الضميرين) .

(٢) الإنصاف والتحرى : ٤٨٥ / تعريف .

وشهد له الذين عرفوه عن قرب ، بنقاء العقيدة ورسوخ الإيمان .
 وفيهم من كان قد استراب في أمره ، تأثرا بشائعات السوء ، ثم بان له
 من حقيقته ما جعله يشهد له بصحة الدين وقوة اليقين .
 نقل « السلفي » بإسنادٍ إلى القاضي « أبي المهذب عبد المنعم السروجي »
 قال :

« سمعت أخي القاضي أبا الفتح يقول :
 « دخلت على أبي العلاء التنوخي بالمعرة ذات يوم في وقت خلوة ،
 بغير علم منه . وكنت أتردد إليه وأقرأ عليه . فسمعتَه وهو ينشد من قبيله :
 كم بودرت غادة كعاب وعُمّرت أمها المعجوزُ
 أحرزها الوالدان خوفاً والقبرُ حرز لها حريز
 يجوز أن تبطىء المنايا والخُلْدُ في الدهر لا يجوز (١)
 ثم تأوه مرات وتلا قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَن خاف عذاب
 الآخرة ، ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يومٌ مشهودٌ » وما نُؤخِّره
 إلَّا لأجلٍ معدودٍ . يومَ يأتِ لا تكلمُ نفسٌ إلَّا بإذنه ، فمنهم شقيٌّ
 وسعيدٌ » (٢) .

ثم صاح وبكى بكاءً شديداً ، وطرح وجهه على الأرض زمانا .
 ثم رفع رأسه ومسح وجهه وقال : « سبحان من هذا كلامه » فصبرتُ
 ساعةً ثم سلمت عليه فردَّ وقال : متى أتيت ؟ فقلت : الساعة . ثم
 قلت : أرى يا سيدنا في وجهك أثر غيظٍ . فقال : لا يا أبا الفتح ،

(١) الأبيات الثلاثة ، من شعر أبي العلاء في (ملقى السبيل) .

(٢) الآيات ١٠١ : ١٠٣ من سورة هود .

بل أنشدتُ شيئاً من كلام المخلوق وتلوتُ شيئاً من كلام الخالق ،
فلحقتني ما ترى !

فتحقت صحة دينه وقوة يقينه .

وما رواه « السلفي » بإسناد إلى القاضي السروجي ، ذكره « الذهبي »
في (تاريخ الإسلام) وابن حجر في (لسان الميزان) .

وليس بعيداً عن قول أبي العلاء في (رسالة الغفران) التي أملاها في
نحو الستين من عمره :

« وأجمع ملحدٍ ومهندٍ ، وناكبٌ عن المحجة ومُقتدٍ ، أن هذا الكتاب
الذي جاء به محمد صلى الله عليه ، كتابٌ بهر بالإعجاز... ما حُدِّي
قط على مثالٍ ولا أشبهَ غريبَ الأمثال . ما هو من التصيد الموزونِ ولا
الرجزِ من سهلٍ وحزونٍ ، ولا شاكلَ خطابةِ العربِ ولا سجعِ الكهانِ
ذوي الأرب . وجاء كالشمس الملائحة ، نورا للمُسيرةِ والبائحة . لو فهمه
الهضْبُ الراكدُ لتصدَّع ...

« وتلك الأمثالُ نضربُها للناسِ لعلهم يتفكرون » (١)

« وإن الآيةَ منه أو بعض الآية ، لتعترضُ في أفصحِ كلمٍ يقدر
عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهابِ المتلألئِ في جُنج غسقٍ ، والزهرةِ
الباديةِ في جدوبِ ذاتِ نسقٍ ، فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين » (٢) .

(١) من آية الحشر ٢١ : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ،
وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

(٢) (رسالة الغفران) : ٤٧٢ ، مِ طبعة الذخائر الخامسة .

وكانت بلبلة اضطرب لها الناسُ في أمره :

بين ما يعلمون من صلابته في الزهد والورع ويسمعون من أماليه
وأشعاره في تمجيد الله وحده ، ومن شهادة من شهدوا له بصحة العقيدة
وقوة اليقين ورسوخ الإيمان ،

وبين ما يشهدون من خروجه على الجماعة بالامتناع عما أحل الله
من طيبات الحياة الدنيا وزينتها ويسمعون من قدح فيه وتجريح ...
أو كما قال داعي الدعاة ، في رسالته الثالثة إلى أبي العلاء :

« ... فلما رمّت بي المرامي إلى الشام ، سمعتُ أن الشيخ وفقه الله ،
بفضل في الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأفاويلُ ووضح به البرهانُ
والدليل . ورأيتُ الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين وفي أمره متبلبلين ،
فكلُّ يذهب فيه مذهبا . وحضرتُ مجلسا جليلا أُجريَ فيه ذكره فقال
الحاضرون فيه غثًا وسمينا ... » .

وبعض هذه البلبلة ، يكفي لصدِّ عامة الجماهير عن أبي العلاء ،
يتكلم فلا يلقون إليه بالا ولا يفقهون له قولاً ، إن لم يصرّفوا أسماعهم
عما يهذي به ، ومن دونه حجاب .

وهو ساهر في دجى الليل البهيم يترقب أن يلوح الغلس ، والصبح
ناؤه بعيد :

طالت على ساهرٍ دُجنته

والصبحُ ناء ، فمن لنا يغلسُ

.....

.....